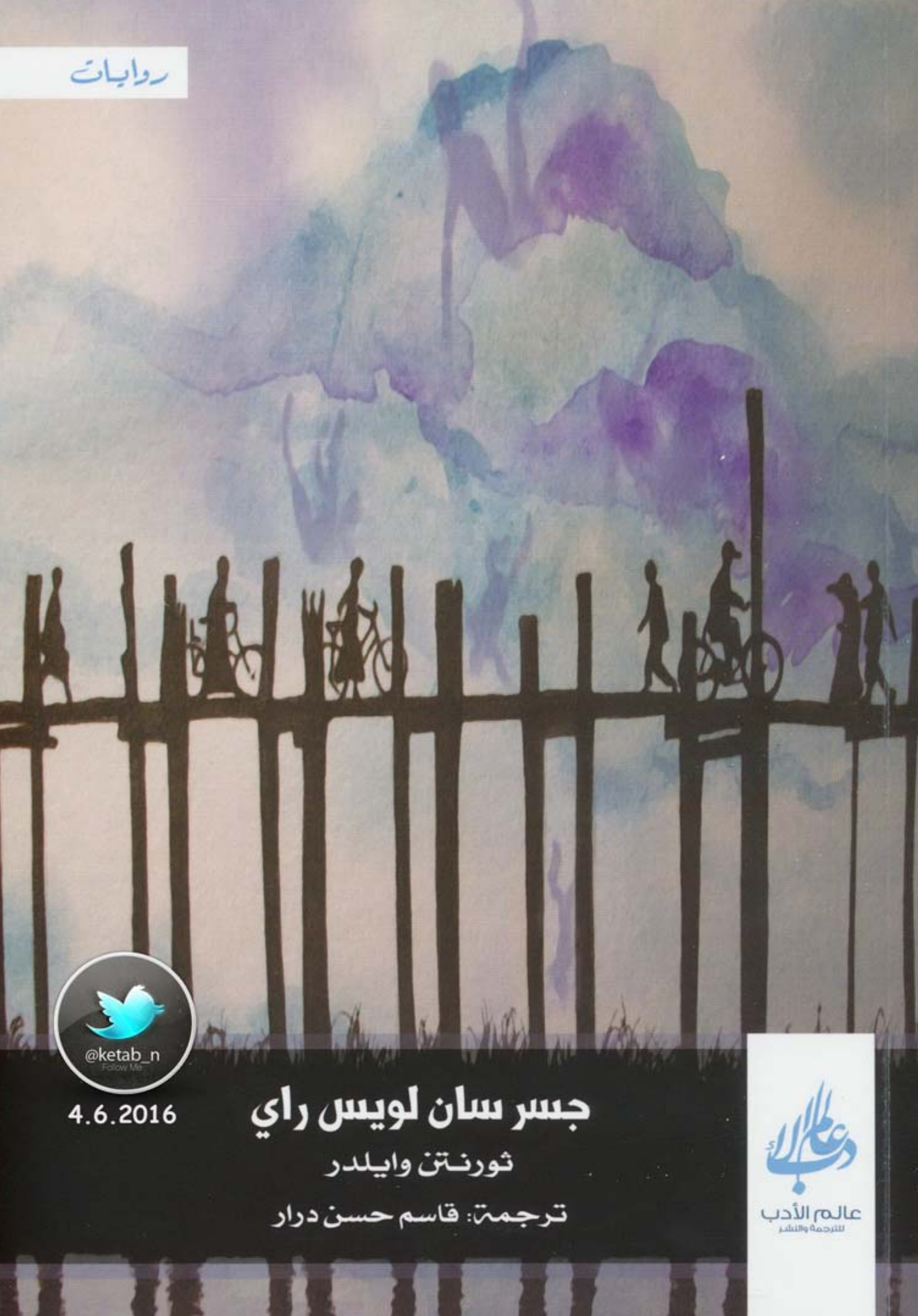
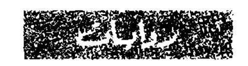

روايات
@ketab_n
Follow Me
4.6.2016
جسر سان لويس راي
ثورنتن وايلدر
ترجمة: قاسم حسن درار
عالم الأدب
للترجمة والنشر



جسر سان لويس راي

ثورنتن وايلدر

ترجمة: قاسم حسن درار






بسم الله الرحمن الرحيم

الكتـــاب: جسر سان لويس راي
المؤلــف: ثورنتن وايلدر
المترجم: قاسم حسن درار

عدد الصفحات: ١٦٠ صفحة
سنة الطباعــة: ٢٠١٦م
بلـد الطباعــة: بيروت/ لبنان
الطبعـــــــة: الأولى

عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع
مؤسسة عربية تعنى بنشر النصوص المترجمة والعربية
في مجالات الثقافة العامة والأدب والعلوم الإنسانية



هاتف: 00201099938159
بريد إلكتروني: info@aalamaladab.com
القاهرة - جمهورية مصر العربية

Title: The Bridge of San Luis Rey
Editor: Thornton Wilder
Translator: Qassim Hassan Dirar

Pages: 160
Year: 2016
Printed in: Beirut, Lebanon
Edition: 1

الفهرسة أثناء النشر - إعداد إدارة الشئون الفنية / دار الكتب المصرية

وايلدر/ ثورنتن
رواية جسر سان لويس راي/ تأليف، ثورنتن وايلدر، ترجمة، قاسم درار
القاهرة، عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع، ٢٠١٥
١٦٠ ص، ١٤,٥×٢١,٥ سم
١- القصص الأمريكية. أ- درار، قاسم حسن (مترجم). ب- العنوان.
رقم الإيداع، ٢٠١٥/١٩٣٤١

ISBN: 978-977-85194-4-0



الفهرس

في ظهيرة يوم الجمعة، العشرين من يوليو (١٧١٤م) انهار أجمل جسر في (بيرو)، وألقىٰ بخمسة مسافرين في الخليج.

قام مواطنو ليما بالتصليب وهمسوا بصلوات الشكر علىٰ نجاتهم. لكن اشتعل في ذهن الأخ جونيبر -راهب متواضع شهد الحادثة- سؤال: «**لماذا حصل هذا لهؤلاء الخمسة دون غيرهم؟!**».

وفي حين تكشف تحقيقات الأخ جونيبر عن احتمالية وقوع الحادث بتقدير -بخصوص حياة الذين بقوا، والذين فُقدوا علىٰ الجسر- يُعيد القارئ اكتشاف الجسر الوحيد الذي لا يسقط بين أرض الأحياء وأرض الموتىٰ.

الفصل الأول

ربما حادث

في ظهيرة يوم الجمعة، التاسع عشر من يوليو، (١٧١٤م)، سقط أعظم جسر في (بيرو) كلها، وألقىٰ بخمسة مسافرين في الخليج. يقع الجسر علىٰ الطريق السريع بين (ليما، وكوسكو)، ويعبره مئات المسافرين كل يوم. شيَّد الإنكا الجسر من نسج الصفصاف قبل أكثر من قرن، ودائمًا ما كان يُقاد زوار المدينة لرؤيته.

كان مُجرَّد سلم من شرائح رقيقة، درابزين من العنب المجفف يتأرجح فوق المضيق. كانت العربات التي تجرها الخيول والرؤساء يضطرون للذهاب مئات الأقدام في الأسفل، ويعبرون علىٰ الطوافات مجرىٰ السيل الضيق. ولكن لا أحد، ولا حتىٰ الحاكم، ولا حتىٰ رئيس أساقفة ليما، كان ينزل مع الأمتعة، بل كانوا يعبرون (**جسر سان لويس راي**) الشهير. لويس فرنسا نفسه يحمي الجسر باسمه، وبكنيسة من الطين علىٰ الجانب الآخر. بدا الجسر ضمن الأشياء التي ستبقىٰ للأبد؛ كان من غير المعقول أن ينهار. في لحظة سماع بيروفي بالحادث قام بالتصليب، ودار في ذهنه

حسابات كيف أنَّه مؤخرًا قام بعبوره، وكيف أنَّه كان ينوي عبوره مجددًا في القريب العاجل. تجوَّل الناس وهم في حالة أقرب للذهول، يهمهمون؛ كان لديهم هلوسة برؤية أنفسهم يقعون في الخليج!

أُقِيم قُدَّاس عظيم في الكاتدرائية. جُمعت جثث الضحايا، ولكن ليس بالكامل. وفصلت عن بعضها البعض، ولكن ليس بالكامل، وكان هناك بحث عظيم عن القلوب في (مدينة ليما) الجميلة. أعاد عدد من الخادمات القلائد التي سرقنها من سيداتهن، والمرابين وبَّخُوا زوجاتهم بغضب، في دفاع عن الربا. بالرغم من ذلك: كان من الغريب أن يُؤثِّر هذا الحدث في أهل ليما بهذه الشدة؛ لأنَّه بالنسبة لبلد حيث هذه الكوراث التي يسميها المحامون -ويا للصدمة!-: «أفعال الرب» هي أكثر من معتادة. تجرف أمواج المد والجزر المدن باستمرار؛ تحدث الزلازل كل أسبوع، وتسقط كثير من الأبراج فوق رجال ونساء صالحين طيلة الوقت.

دومًا ما كانت الأمراض ترفرف داخلة وخارجة من المحافظات، وأخذ طول العمر بعضًا من أكثر المواطنين المحبوبين بعيدًا. من أجل ذلك كان من المستغرب جدًّا أن يكون البيروفيون متأثرين بشدة من تمزق جسر سان لويس راي.

كان الجميع متأثرًا بشدة بالحادث، ولكن قام شخص واحد فقط بفعل شيء بخصوصه، كان هذا الشخص الأخ جونيبر. في

سلسلة من المصادفات الغريبة جدًّا لدرجة تجعل الشخص يشكُّ في وجود شيء من التدبير، قُدِّرَ أن يكون هذا الفرانسيسكاني[1] الصغير ذو الشعر الأحمر من شمال إيطاليا في بيرو يُنَصِّر الهنود، وقُدِّرَ أن يعاين الحادث.

كانت ظهيرة حارة، تلك الظهيرة القاتلة، ومرورًا بكتف التلة توقف الأخ جونيبر ليمسح جبينه، وليتمعَّن منظر القمم الثلجية من بعيد، ومنظر المضيق تحته، وقد ملئ بحزمة داكنة من الشجر الأخضر، والطيور الخضراء، ويجتازه السلم الصفصافي. كان الفرح بداخله (يملؤه)؛ تسير الأمور بشكل لا بأس به. افتتح عدة كنائس صغيرة مهجورة، وصار الهنود يزحفون إلىٰ القُدَّاس المبكر، ويئنون للحظة المعجزة، حتىٰ وكأنَّ قلوبهم تتفطر. لعلَّه كان الهواء النقي الذي يهب من الثلوج أمامه؛ لعلَّها كانت الذكرىٰ التي لاحت لبرهة من القصيدة التي دعته ليرفع ناظريه إلىٰ التلال المتعاونة. أحس بالسكينة في كل الأحيان. ومن ثَمَّ وقع نظره علىٰ الجسر، وفي تلك اللحظة ملأت ضوضاء رنين الجو، كذلك الرنين الذي يسمع عندما ينقطع وتر آلة موسيقية في غرفة مهجورة، ورأىٰ الجسر ينشطر ويقذف بما بدا كأنَّه خمس نملات إلىٰ الوادي تحته. كان أي أحد سيقول لنفسه في نشوة خفية: **«في غضون عشر دقائق سأكون أنا»**.

---

(١) نسبةً للقديس فرانسيس (سانت فرانسيس).

لكن فكرة أخرىٰ كانت تجول في ذهن الأخ جونيبر: **(لماذا حدث هذا لهؤلاء الخمسة بالتحديد؟!)**، لو كان هناك أي تقدير في الكون، لو كان هناك أي نمط في حياة البشر، بالتأكيد سيمكن اكتشافه متخفٍّ بغموض في هذه الأرواح التي فُقِدت بغتة. **(إمَّا أنَّنا نعيش صدفة ونموت صدفة، أو أنَّنا نعيش بقدر ونموت بقدر!)**، وفي تلك اللحظة عقد الأخ جونيبر العزم علىٰ سبر أسرار حياة هؤلاء الأشخاص الخمسة في تلك اللحظة وهم يهوون، وليكشف سبب قذفهم.

بدا للأخ جونيبر أنَّه قد حان الوقت لعلم اللاهوت أن يتبوَّأ منزلته بين العلوم الدقيقة، وقد كان عزم منذ أمد بعيد أن يضعه هناك. الذي كان ينقصه هو مختبر.

أوه! لم يكن هنالك أبدًا نقص في العينات؛ قد واجهت المصائبُ أيَّ واحد من أتباعه: (لدغتهم العناكب، مُسَّت صدورهم، أُحرقت بيوتهم، وحدثت أشياء لأطفالهم كفيلة بأن يفقد الواحد عقله!).

ولكن لحظات الويل البشرية هذه لم تكن يومًا مناسبة للتجربة العلمية. افتقدوا ما سمَّاه علماؤنا الجيدون لاحقًا: بـ**(التجربة المعيارية المناسبة)**. اعتمد الحادث علىٰ الخطأ الإنساني -مثلًا-، أو احتوىٰ علىٰ عناصر من الاحتمالات. لكن انهيار **(جسر سان لويس راي)** كان فعلًا إلهيًا محضًا. وفَّر الجسر مختبرًا مثاليًا. هنا علىٰ الأقل يستطيع المرء أن يكشف عن نوايا الإله في حالة صفاء.

نستطيع أنا وأنت أن نرىٰ أنَّ هذه الخطة لو أتت من أي شخص عدا الأخ جونيبر؛ لكانت زهرة التشكيك المطلق. لقد شابهت خطته جهود تلك الأرواح المتعجرفة التي أرادت المشي علىٰ أرصفة الجنة، وبناء برج بابل للوصول إليها. لكن بالنسبة لصاحبنا الفرانسيسكاني لم يكن هناك عنصر شكٍّ في التجربة. هو يعرف الإجابة. أراد فقط أن يثبتها، تاريخيًّا، ورياضيًّا، للمتنصرين الجدد، مساكين المتنصرين الجدد العنيدين، بطيئون جدًّا في الإيمان أنَّ آلامهم أُدخلت علىٰ حياتهم من أجل مصلحتهم. دومًا ما كان الناس يسألون عن أدلة سليمة وجيدة؛ ينابيع الشك أبدية في الصدر الإنساني، حتىٰ في البلاد التي تستطيع محاكم التفتيش فيها أن تقرأ أفكارك من عينيك.

لم تكن هذه المرة الأولىٰ التي يلجأ فيها الأخ جونيبر إلىٰ طرق كهذه. ففي الرحلات الطويلة التي كان عليه القيام بها (مهرولًا من أبرشية إلىٰ أبرشية، ورداؤه قد كُف إلىٰ الركبة، للاستعجال)، غالبًا ما كان يستسلم للحلم بتجارب تبرر طرق الرب للإنسان.

من أمثلة ذلك: سِجِلٌّ كامل لصلوات الاستسقاء ونتائجها. غالبًا ما كان يقف علىٰ عتبة من عتبات كنائسه الصغيرة، وأتباعه يسجدون أمامه علىٰ الطريق المحمص من حر الشمس. غالبًا ما كان يمدُّ يديه إلىٰ السماء يُؤدِّي خطبة هذا الطقس الرائع. ليس كثيرًا، لكن في عدة أحيان، شعر بملك الفضيلة يدخل جسمه، ورأىٰ سحابًا يتشكَّل في الأفق. لكن في كثير من الأوقات كانت

تمرُّ أسابيع دون حدوث شيء . . . لكن لِمَ التفكير فيها؟! فهو لم يكن يحاول أن يقنع نفسه بأنَّ المطر والجفاف قد وزِّع بحكمة.

لذلك: برز هذا العزم داخله في لحظة الحادث. لقد حثَّه أن يشغل نفسه لست سنوات، يطرق الأبواب في ليما، يسأل آلاف الأسئلة، يملأ سجلًا من الدفاتر، في محاولة تأسيس حقيقة أنَّ حياة كلٍّ من الخمسة الذين فُقدوا كانت مثالية بالكلية. علم الجميع أنَّه يعمل علىٰ شيء أشبه بالتذكار للحادثة، والجميع كان متعاونًا جدًّا ومُضلِّلًا جدًّا. أدرك قلة الهدف الأساسي من نشاطه، وقد كانوا مموِّلين من أماكن مرموقة.

كانت نتيجة هذا العمل الدؤوب كتاب ضخم سيُحرق علىٰ الملأ، كما سنرىٰ لاحقًا، في صباح ربيع جميل في الميدان الكبير. لكن كان هناك نسخة سرية، وبعد سنوات عديدة مضت، وبدون كثير من الانتباه وُجد الكتاب في مكتبة (جامعة سان ماركو). كان قابعًا هناك في خزانة مجمعًا الغبار بين غطاءين خشبيين عظيمين. تناول الكتاب حياة واحد تلو الآخر من ضحايا الحادثة، مفهرسًا آلاف القصص والحقائق الصغيرة والشهادات، وخاتمًا بفقرة مبجلة تصف لماذا الرب قد استقر اختياره علىٰ ذلك الشخص في ذلك اليوم من أجل إظهار حكمته. مع كل عمله الدؤوب لم يعرف الأخ جونيبر شغف دونا ماريا الأساسي في حياتها؛ ولا شغف عم بيو، ولا حتىٰ شغف إيستبان. وأنا، الذي أدعي أنَّني أعرف أكثر بكثير، أليس من الممكن أن أكون حتىٰ أنا

قد غفلت عن نفس الينبوع الذي بداخل الينبوع؟

يقول البعض: إنَّنا لن نعرف أبدًا، وبالنسبة للآلهة نحن كالذباب الذي يسحقها الأولاد في يوم صائف، ويقول البعض، بل بالعكس، لا تفقد عصافير الدوري نفسُها ريشةً دون أن تمسها إصبع الرب.

الفصل الثاني

ماركيزا دي مونتيمايور

يطلب من أي طفل إسباني اليوم أن يعرف عن دونا ماريا، ماركيزا دي مونتيمايور، أكثر ممَّا كان سيكتشفه الأخ جونيبر في أعوام من البحث. في غضون قرن من وفاتها أصبحت رسائلها أحد أعمدة الأدب الإسباني، وصارت حياتها والفترة الزمنية المصاحبة محل دراسات مطولة. لكنَّ كُتَّابَ السِّيَر مالوا بنفس حدة توجه الفرانسيسكاني في اتجاه آخر؛ لقد حاولوا أن يُكيِّلُوا لها سيلًا من الفضائل، وأن يرجعوا لحياتها، وأن يُقدِّموا بعضًا من الجماليات في رسائلها، بينما لا بُدَّ أن تنطلق المعرفة الحقيقة بخصوص هذه المرأة الجميلة من إهانتها وتجريدها من كل جميل عدا واحد.

كانت ابنة تاجر ملابس، الذي جمع المال وكراهية الليميين[١] علىٰ مرمىٰ حجر من الساحة التجارية. لم تكن طفولتها سعيدة: كانت قبيحة، منغلقة، لاحقتها أمها بالسخرية أملًا في تحصيل بعض الألق الاجتماعي، وأجبرتها أن تجوب المدينة بلجام من

---

(١) نسبة لمدينة ليما.

الجواهر. عاشت وحيدة وفكرت وحيدة. تقدَّم كثير من الخطاب، لكنَّها قدر استطاعتها حاربت أعراف عصرها، وكانت مصممة أن تبقىٰ عزباء. كان هناك العديد من المشاهد الهستيرية مع أمها كتبادل الاتهامات، الصراخ، والإغلاق العنيف للأبواب. **أخيرًا**: في السادسة والعشرين وجدت نفسها موثوقة بزواج من نبيل متعجرف فاسد، وامتلأت كاتدرائية ليما إلىٰ حدٍّ ما بسخرية الضيوف. بالرغم من ذلك بقيت تعيش وحيدة، وتفكر وحيدة، وعندما وَلدت بنتًا رائعة عقدت عليها حب عبودية. لكن كلارا الصغيرة اقتفت أثر والدها؛ كانت باردة ومفكرة. في عمر الثامنة كانت بكل هدوء تصحح كلام أمها، وترمقها في وقتها بالدهشة والنفور. أصبحت الأم خانعة وذليلة، لكنَّها لم تستطع أن تمنع نفسها من مطاردة دونا كلارا بالاهتمام المتوتر والحب المرهق. مرة أخرىٰ كان هناك المشاهد الهستيرية كتبادل الاتهامات، الصراخ، والإغلاق العنيف للأبواب. من بين عروض الزواج التي بين يديها، تعمدت دونا كلارا أن تختار العرض الذي تتطلب خروجها إلىٰ إسبانيا. إذا ذهبت إلىٰ إسبانيا، ذهبت إلىٰ تلك الأرض التي يستغرق فيها استلام جواب رسالة ستة أشهر. أصبح في بيرو أخذ إجازة قبل سفرة طويلة واحدة من الشعائر الرسمية في الكنيسة. بُوركت السفينة، وأثناء اتساع المسافة بين السفينة والشاطئ جثا الفريقان علىٰ ركبهما، وأنشدوا ترنيمة لم تخفق أبدًا أن تكون نبرتها ضعيفة، وخجلة في ذلك الجو الرحب. أبحرت دونا كلارا برباطة جأش

جديرة بالإعجاب تاركةً أمها تحدق متتبعة السفينة البراقة، ويداها تضغط الآن علىٰ قلبها وفمها. أصبحت رؤيتها للمحيط الهادئ الساكن، وسحب اللؤلؤ المعلقة فوقه ساكنة للأبد مشوشة ومقطعة. وحيدة في ليما، أصبحت حياة ماركيزا منغلقة علىٰ نفسها أكثر وأكثر. صارت أكثر لا مبالاة بملبسها، وككل الأشخاص الوحيدين كلَّمت نفسها بصوت مسموع. يقبع وجودها كله في المركز المتوقد من عقلها. علىٰ تلك المنصة عرضت حوارات لا حصر لها مع ابنتها، مساومات مستحيلة، مشاهد تولد أبديًّا الندم والمسامحة. علىٰ قارعة الطريق تلمح عجوزًا شعرها المستعار سقط قليلًا علىٰ أذن واحدة، وخدها الأيسر غاضب من آثار الجذام، وخدها الأيمن غاضب من تعديل تكميلي بالحمرة. لم يكن ذقنها جافًّا أبدًا، وشفتاها لم تكونا ساكنتين. كانت ليما مدينة لغريبي الأطوار، لكن حتىٰ هناك أصبحت ماركيزا طرفة المكان بينما كانت تجوب الشوارع، أو تصعد عتبات الكنائس. اعتُقد أنَّها مخمورة علىٰ الدوام. قِيلت أشياء أسوأ بحقها بينما كانت العرائض طافحة مطالبة بالحجر عليها. وكانت اتُّهمت ثلاث مرات من قِبل محاكم التفتيش.

ليس من المستبعد أنَّها كانت لتحرق صهرها لو كان أقل نفوذًا في إسبانيا، ولم تكن بطريقة ما حصلت علىٰ بعض الأصدقاء في بلاط الحاكم، الذين عانوا بسبب غرابتها وذيوع صيتها. ازدادت طبيعة العلاقات المتوترة بين الأم والابنة سوءًا بالخلافات حول

المال. تلقت الكونديسا عطاءً سخيًّا من أمها وهدايا متكررة. بعد فترة بسيطة أصبحت دونا كلارا المرأة الأبرز في مخابرات البلاط الإسباني. لم تكن ثروة بيرو بأكملها كافية للحفاظ علىٰ أسلوب معيشتها مع جنون العظمة الذي عاشته. من الغريب بما يكفي أنَّ تبذيرها كان مستمدًا من أحسن خصالها: كانت تعتبر جميع أصدقائها وخدمها وجميع الأشخاص المهمين في العاصمة أبناءها.

في الحقيقة بدا هناك شخصٌ واحدٌ في العالم لم تبذل تجاهه عطفها. كان من بين تلامذتها رسام الخرائط دي بلاسييس (الذي خرائطه للعالم الجديد كانت مهداة للماركيزا دي مونتيمايور، وكان نصه أنَّها: «محل إعجاب مدينتها، وشمس صاعدة في الغرب»)؛ تلميذ آخر كان العالِم أوزاريوس الذي أُجهضت أعماله بخصوص قوانين الهيدروليكا من قِبل محاكم التفتيش؛ لكونها مثيرة جدًّا. لعقد من الزمن دعمت الكونديسا فعليًّا كل فنون إسبانيا وعلومها؛ لم يكن خطؤوها أنَّه لم ينتج أي شيء ذي بال في ذلك الوقت. بعد أربع سنوات تقريبًا من مغادرة دونا كلارا استلمت دونا ماريا الإذن بزيارة أوروبا. علىٰ كلا الجانبين كانت الزيارة متوقعة بقرارات غذيت جيدًا بالتبكيت الذاتي، **الأولىٰ**: أن تكون صابرة، **والأخرىٰ**: أن تكون متحفظة. فشلت كلتاهما. عذبت كل واحدة الأخرىٰ، وكانت كل منهما علىٰ وشك أن تفقد عقلها تحت تناوب توبيخ الذات ونوبات العاطفة. في فترة يوم واحد استيقظت دونا ماريا قبل الفجر، لا تزيد جرأتها علىٰ أن تُقبِّل الباب الذي تنام

خلفه ابنتها، وركبت السفينة، وعادت إلىٰ أمريكا. من الآن فصاعدًا كان لا بُدَّ لكتابة الرسائل أن تحل محل كل العاطفة التي لم يمكن أن تعاش.

كانت رسائلها في عالم مذهل هي التي أصبحت كتبًا لصبية المدارس، وتلة النمل للنحاة. كانت دونا ماريا لتخترع عبقريتها حتىٰ لو لم تكن وُلدت بها، كان من المهم جدًّا لحبها أن يجذب انتباه طفلتها البعيدة، وربما إعجابها. أجبرت نفسها لتخرج علىٰ المجتمع؛ لتسكت سخريته؛ علَّمت عينيها أن تلاحظ؛ قرأت الأمهات في لغتها لتكتشف آثارها؛ دست نفسها بين الذين كان يُحتفىٰ بحواراتهم. ليلة بعد ليلة في شرفة قصرها كتبت، وأعادت كتابة الصفحات المذهلة معتصرة من عقلها المحبط تلك المعجزات من الظرف والسمو، تلك السجلات المنقاة من بلاط الحكم. نعلم الآن أنَّ الابنة بالكاد نظرت للرسائل، وأنَّنا ندين بالفضل للصهر لحفظها.

كانت الماركييزا لتُذهل أن تعلم أنَّ رسائلها كانت خالدة. مع ذلك اتهمها كثير من النقاد بالوصاية علىٰ الأجيال القادمة، وأشاروا إلىٰ عدد من رسائلها التي لها صيت بأنَّها قطع بارعة. بالنسبة لهم يبدو مستحيلًا أن دونا ماريا في سبيل إبهار ابنتها تجرعت نفس الآلام التي يتجرعها الفنانون لإبهار العامة. أساءوا فهمها كصهرها؛ استمتع الكونبدي برسائلها، لكنَّه ظنَّ أنَّه عندما يستمتع بالأسلوب فقد استخرج كل غناها ونواياها مغفِلًا (كما يفعل معظم

القراء) المغزىٰ كله من الأدب، ألَا وهو تدوين للقلب. ليس الأسلوب إلَّا الحامل المستساغ بالكاد، وفيه السائل المر الذي وصف للعالم. كانت الماركيزا لتُذهل أن تعلم أنَّ رسائلها كانت جيدة جودة من أجلها يعيش المؤلفون دائمًا في الجو النبيل لعقولهم، وتلك الإصدارات التي تبدو لنا متميزة هي بالنسبة لهم أفضل قليلًا من روتين يوم.

كانت هذه هي المرأة العجوز التي تجلس ساعة بعد ساعة علىٰ شرفتها، وقبعتها الغريبة من القش تلقي بظل بنفسجي علىٰ وجهها المصفر والمملوء بالخطوط. كم مرة وهي تقلب صفحاتها بيديها المرصعة، تُسائِلُ نفسها، مستمتعة شيئًا ما: إذا ما كان للألم في قلبها مقعد حقيقي؟! كانت تتساءل إذا قام طبيب متخفٌ بالقطع إلىٰ ذلك العرش المقصوف هل يستطيع أخيرًا اكتشاف علامة، ويرفع رأسه إلىٰ مدرج غرفة الجراحة صارخًا لطلبته: «هذه المرأة عانت، ومعاناتها قد تركت أثرها علىٰ بنية قلبها!». راودتها هذه الفكرة كثيرًا لدرجة أنَّها في يوم كتبتها في رسالة، فوبَّختها ابنتها علىٰ الإغراق في التفكير، وابتداع ديانة من الحزن.

كان أثر إدراكها أنَّها لن تُحب بالمقابل علىٰ أفكارها، كأثر موجة عندما ترتطم بالجرف. أول ما فقد كان إيمانها الديني؛ لأنَّ كل ما استطاعت أن تطلبه من الرب، أو من الخلود، هو هبة مكان حيث البنات يحببن أمهاتهن؛ صفات الجنة الأخرىٰ يمكنك أن تجعلها في أغنية. ثم فقدت إيمانها في صدق إيمانها بنفسها.

رفضت سرًّا أن تؤمن أنَّ أي أحد (باستثنائها هي) أحب أي أحد. عاشت كل العوائل في جو مُضيَّعٍ من التقاليد، وقبلوا بعضهم البعض بلا مبالاة سرية. رأت أنَّ الناس في هذا العالم تتجول في درع من الغرور، سكارىٰ من النظر للنفس، ظمأىٰ للإطراءات، يسمعون قليلًا ممَّا يُقال لهم، غير متأثرين بالحوادث التي وقعت لأعز أصدقائهم، في توجس من كل الالتماسات التي قد تعطل اجتماعهم الطويل برغباتهم. كان هؤلاء أبناء وبنات آدم من كاثاي إلىٰ بيرو. وعلىٰ الشرفة عندما تصل أفكارها إلىٰ هذا المنعطف، ينكمش فمها بالخزي؛ لأنَّها تدرك أنَّها أيضًا أذنبت، وبالرغم من أنَّ حبها لابنتها كان واسعًا بما يكفي ليحوي كل ألوان الحب، لم يكن يخلو من مسحة طغيان، فقد أحبت ابنتها، ليس من أجلها، بل من أجل نفسها. تاقت لتحرر نفسها من هذا الرابط الخسيس، لكن الشغف كان أعنف ممَّا يُمكن أن يُتعامل معه. ثم علىٰ تلك الشرفة الخضراء هزت حربًا غريبة العجوز الشنيعة، صراع فردي عقيم ضد إغراء لن تمتلك الفرصة أبدًا في إخضاعه. كيف أمكنها أن تحكم ابنتها في حين أنَّ ابنتها رأت أربعة آلاف ميل بينهما؟ ومع ذلك صارعت دونا ماريا شبح إغراءاتها، وكانت تخسر في كل مرة. أرادت ابنتها لنفسها؛ أرادت أن تسمعها تقول: «**أنت الأفضل من بين كل الأمهات!**». تاقت لتسمعها تهمس: «**سامحيني!**».

بعد حوالي عامينِ من عودتها من إسبانيا وقعت هناك سلسلة من الأحداث المبهمة التي كان لها دور كبير أن تجلي الحياة

الداخلية للماركيزا. تظهر أضعف الإشارات لتلك الحالة في المراسلة، لكن بما أنَّ ذلك موجود في (الرسالة ٢٢) التي تحوي علامات أخرىٰ سأبذل ما بوسعي لأقدم ترجمة وتعليق للجزء الأول من الرسالة:

«ألا يوجد أطباء في إسبانيا؟ أين أولئك الرجال الطيبون من الفلاندرز الذين كانوا يساعدونك؟ أوه، غاليتي، كيف يمكننا أن نعاقبك بما يكفي لسماحك لنزلة البرد تستمر لأسابيع كثيرة جدًّا؟ دون فيسينتي، أناشدك أن تجعل ابنتي ترىٰ الحق. ملائكة السماء، أناشدكِ أن تجعلي ابنتي ترىٰ الحق. بما أنَّك الآن أفضل، أتوسل إليك، أدركي أنه مع أول إنذار لنزلة البرد ستمررين البخار علىٰ نفسك جيدًا ثم تنامين. أنا بلا حيلة هنا في بيرو؛ لا أستطيع فعل شيء. لا تكوني عنيدة حبي. باركك الرب. أرفقت في حزمة اليوم صمغ من شجرة تحوم بها أخوات سان توماس من باب إلىٰ باب. لا أعلم ما إذا سيكون له استعمال. لا يمكنه أن يضر. أُخبرت أنَّ الأخوات السخيفات يستنشقنه بكل براعة بحيث لا يستطيع أحد أن يشم عبق البخور في القداس. ما إذا سيكون جديرًا للتجربة لا أعرف؛ جربي».

«هدِّئي من روعك، يا حبي، سأرسل لجلالته الأكثر كاثوليكية السلسلة الذهبية المثالية».

(كتبت ابنتها لها: وصلت السلسلة في حالة جيدة، ولبستها

في تعميد الإنفانتي[1]. كان جلالته الأكثر كاثوليكية لطيفًا بما يكفي؛ ليعجب بها، وعندما أخبرته أنَّك أعطيتيني إيَّاها بعث لك بثنائه علىٰ ذوقك. لا تتأخري أن ترسلي له واحدة مشابهة؛ أرسليها فورًا، عن طريق الشامبيرلاين). لا يحتاج نهائيًّا ليعلم أنِّي لكي أحصل عليها كان عليَّ أن أدخل في لوحة. هل تذكرين في غرفة المقدسات في سان مارتين تلك اللوحة لفيلاسكويز للحاكم الذي أسس الدير وزوجته والصبي الشقي؟ وزوجته ترتدي سلسلة ذهبية؟ انتهيت إلىٰ أن تلك السلسلة فقط هي التي ستؤدي الغرض. **لذا**: تسللت في منتصف ليلة إلىٰ غرفة المقدسات، تسلقت طاولة الثياب كبنت في الثانية عشرة من العمر ودخلت. قاومت اللوحة لبرهة، لكن الرسام نفسه تقدَّم لينتشلني من بين الصبغ. أخبرته أنَّ أجمل فتاة في إسبانيا ترغب في تقديم أفضل سلسلة ذهبية يمكن العثور عليها إلىٰ أعظم ملك في العالم. كان الأمر بتلك البساطة ووقفنا هناك وتكلمنا -نحن الأربعة- في الهواء الفضي والرمادي الذي تعرف به لوحة فيلاسكويز. الآن أفكر في ضوء أكثر ذهبية، أستمر في النظر إلىٰ القصر: لا بُدَّ أن أمضي المساء في لوحة لتايتان. هل يا ترىٰ سيسمح لي الحاكم بذلك؟

«لكن أصاب سعادته النقرس مجددًا. أقول: «مجددًا»؛ لأنَّ البلاط يصر مداهنًا أنَّ هناك أوقات يكون الملك معافًىٰ منه. وبما

---

(١) اسم للابن الثاني في العائلة المالكة الإسبانية.

أنَّ اليوم هو يوم سانت مارك بدأ سعادته بزيارة للجامعة، حيث تم تقديم اثنين وعشرين طبيبًا إلىٰ العالم. كان صعبًا أن ينقل من ديوانه إلىٰ عربته، عندما يصرخ ويرفض الذهاب أبعد من مكانه. نُقل إلىٰ سريره عندما كسر سيجارًا لذيذًا، وأرسل في طلب البيريكول.

وبينما استمعنا لخطب دينية طويلة -باللاتينية تقريبًا- سَمِعَنا جمعيًّا -بالإسبانية تقريبًا- ابتداءً بالأكثر حمرة من الشفاه إلىٰ الأكثر وقاحة في المدينة. (سمحت دونا ماريا لنفسها بهذه الفقرة بالرغم أنَّها قرأت لتوها في رسالة ابنتها الأخيرة: «كم مرة عليَّ أن أخبرك أن تكوني أكثر حذرًا بخصوص ما تقولينه في رسائلك؟ غالبًا ما يبدو عليها آثار تدل أنَّها فتحت أثناء الرحلة. لا شيء يمكن أن يكون أكثر خطأً من تعليقاتك علىٰ -ما تعرفين- أقصد تعليقاتك علىٰ كوسكو. ملاحظات كهذه ليست ظريفة بالرغم من مدح فيسينتي لها في حاشية خطاباته، وقد تورطنا في مشاكل كبيرة مع بعض الأشخاص هنا في إسبانيا. لازلت مندهشة من طيشك الذي هو كفيل بأن يفرض عليك من مدة طويلة الإقامة في مزرعتك»).

كان هناك حضور كبير للصحافة في المراسم، وسقطت امرأتان من الشرفة، ولكن الرب في جلاله قدر أن تسقطا علىٰ دونا ميرسيد. أصيب الثلاثة إصابات بالغة لكنهُنَّ سيفكرن في أشياء أخرىٰ خلال سنة. كان الرئيس يتحدث أثناء الحادث، ولكونه يعاني من قصر النظر، فلم يستطع معرفة سبب الجلبة التي أحدثتها الصيحات والكلام وسقوط الأجسام!

كانت رؤيته منحنيًا ظنًّا منه أنَّ الجمهور يصفق له مصدرًا للسعادة. بمناسبة الحديث عن البيريكول والتصفيق أنا وبيبيتا قرَّرنا الذهاب إلىٰ الكوميديا هذا المساء. ما زال العامة يُقدِّسون بيريكولتهم، إنَّهم يغفرون لها حتىٰ عمرها. يقال إنَّها تحافظ علىٰ ما تستطيع -كل صباح- بتناوب تمرير أقلام من الثلج والنار علىٰ خديها. (تقف الترجمة عاجزة عن هذه البلاغة التي تحمل حرارة اللغة الإسبانية كلها. كان المقصود منها غاية الإطراء علىٰ الكونديسا ولم يكن صحيحًا. في هذا الوقت بلغت الممثلة العظيمة الثامنة والعشرين من العمر كان لخديها نعومة وبريق قطعة صفراء داكنة من الرخام، وبالتأكيد احتفظت بهذه الميزة لسنين عدة. بغض النظر عن مستحضرات التجميل التي تتطلبها عروضها الأمر الوحيد الذي استطاعت كاميلا بيريكول أن تفعله لوجها هو رش الماء البارد عليه مرتين في اليوم كمزارعة تقف علىٰ حوض الحصان).

«ذلك الرجل الفضولي الذي يُدعىٰ عم بيكو يقف بجانبها طول اليوم. لا يستطيع دون روبيو معرفة ما إذا كان عم بيو أبوها، حبيبها، أو ابنها. أدَّت البيريكول عرضًا رائعًا. وبخيني كما شئت بقولك قروية ساذجة ليس لديكم ممثلات كهؤلاء في إسبانيا».

وهكذا.

تتعلَّق الملابسات القادمة بهذه الزيارة للمسرح. قررت الذهاب للكوميديا، حيث تمثل البيريكول دور دونا ليونور في

مسرحية موريتو[1] ترامبا اديلانتي، ربما تكون الزيارة مادة رسالتها القادمة لابنتها. أخذت معها بيبيتا، بنت صغيرة سنعرف عنها الكثير لاحقًا. استعارتها دونا ماريا كرفيقة من الميتم التابع لدير سانتا ماريا روسا دي لاس روساس. جلست الماركييزا في المنصة تحدق باهتمام متضائل إلىٰ العرض المذهل. كان من عادة البيريكول بين المشاهد أن تطرح جانبًا التملق وتقف أمام الستارة لتغني بعض الأغاني الموضوعية. رأت الممثلة الماكرة وصول الماركييزا، وبدأت في الحال بارتجال وصلات تلمح لمظهرها، جشعها، سكرها، وتلمح حتىٰ لرحيل ابنتها عنها. تحول تركيز المسرح بخفاء إلىٰ المرأة العجوز وصاحبت ضحكات الجمهور همهمات احتقار. لكن الماركييزا -متأثرة جدًا بأول مشهدين من الكوميديا- نادرًا ما شاهدت المغنية، وجلست تحدق أمامها تفكر في إسبانيا. أصبحت كاميلا بيريكول أكثر جرأة، وكان الجو مشحونًا بكراهية وابتهاج الجمهور.

أخيرًا: جذبت بيبيتا كم الماركييزا وهمست لها بضرورة الرحيل. وحين همت الماركييزا وبيبيتا بمغادرة المنصة وقف المسرح منفجرًا بصيحات النصر. انتفضت البيريكول في رقصة جنونية؛ لأنَّها رمقت المدير في مؤخرة القاعة عالمة أن راتبها قد زاد. لم تفطن الماركييزا لكل ما حدث، بل الحقيقة أنَّها كانت

---

(١) راهب إسباني كاثوليكي ودرامي وكاتب مسرحيات.

مسرورة جدًّا؛ لأنَّها في تلك الزيارة اقتبست بعض العبارات البهيجة، عبارات -من يدري- يمكنها رسم ابتسامة علىٰ وجه ابنتها ويجعلها تهمس قائلة: «أمي رائعة فعلًا». وصل الخبر في الوقت المناسب لسمع الحاكم أن أحد أرستقراطيه تم الاستهزاء به علنًا علىٰ المسرح. أرسل في طلب البيريكول إلىٰ القصر وأمرها أن تذهب للماركيزا وتعتذر لها. كان عليها الذهاب حافية القدمين مرتدية فستانًا أسود. جادلت كاميلا وتشاجرت، لكن كل ما استطاعت أن تكسبه هو زوج من الأحذية.

كان لدىٰ الحاكم ثلاثة أسباب لإصراره. في المقام الأول أخذت المغنية حريتها مع بلاطه. دبر دون أندرياس بدهاء؛ ليجعل المنفىٰ محتملًا ببناء تذكار معقد، لدرجة أنَّه لن يتذكر إلا في مجتمع ليس لديه شيء آخر يفكر فيه. رعىٰ أرستقراطيته الصغيرة وتفاصيلها الدقيقة وأي إهانة للماركيزا كانت إهانة لشخصه. في المقام الثاني، كان صهر دونا ماريا شخصية متنامية الأهمية -محملًا بإمكانيات تهديد الحاكم- بل بإمكانية إزاحته. لا يجب مضايقة الكوندي فيسينتي دي أوبيري حتىٰ من خلال حماته النصف مختلة. في الأخير كان الحاكم مسرورًا لِضِعَةِ الممثلة. شكَّ الحاكم أنَّ البيريكول تخونه مع مصارع ثيران، وربما مع ممثل، وبين مجاملات البلاط وزخم النقرس لم يستطع معرفته. وعلىٰ كل حال بدَا جليًا أنَّ المغنية بدأت تنسىٰ أنَّه كان من أكثر الرجال نفوذًا في العالم.

كانت الماركييزا -بجانب أنَّها لم تستمع لأغاني الاستهزاء- غير مستعدة لأسباب أخرىٰ لزيارة الممثلة. لا بُدَّ عليك معرفة أن دونا ماريا بعد مغادرة ابنتها اكتشفت مصدرًا للتعزية: لجأت إلىٰ الشراب. كان الجميع يشرب التشيتشا في بيرو، وكان من غير المعيب أن يوجد الشخص مغشيًا عليه في يوم وليمة. بدأت دونا ماريا تكتشف أنَّ حواراتها النفسية المحمومة كانت تبقيها -بطريقة ما- مستيقظة طوال الليل. تناولت مرة كأسًا مخددةً من التشيتشا قبل النوم. كانت الغفلة لذيذة لدرجة أنَّها سرقت في لحظتها جرعات أكبر وحاولت إخفاء أثرها عن بيبيتا. ألمحت أنَّها ليست علىٰ ما يرام وتظاهرت أنَّ حالها يتدهور. وفي النهاية تركت التظاهر. كانت البواخر التي تحمل رسائلها لإسبانيا لا تغادر أكثر من مرة في الشهر. خلال الأسبوع الذي سبق إعداد الطرد التزمت بصرامة بوصفة طبية (للبقاء واعية والابتعاد عن الشرب)، وجابت المدينة بدأب تبحث عن مادة للكتابة. كتبت الرسالة أخيرًا في عشية يوم الرحلة مجهزةً الحزمة قريب الفجر تاركةً إيَّاها لبيبيتا لتسليمها للمندوب. ثم مع شروق الشمس كانت تغلق علىٰ نفسها الغرفة مع بعض الأباريق منجرفةً خلال الأسابيع القادمة دون عبء الوعي. أخيرًا كانت تخرج من سعادتها وتستعد لدخول فترة من (التدريب) للاستعداد لكتابة رسالة أخرىٰ. **لذلك**: في الليلة التي تبعت فضيحة المسرح كتبت الرسالة الثانية والعشرين، واستلقت علىٰ السرير مع الإبريق. خلال اليوم التالي كله كانت بيبيتا تتنقل في أرجاء الغرفة

ترمق بقلق الجسد المستلقي علىٰ السرير. في ظهيرة اليوم التالي أحضرت بيبيتا عدة الخياطة إلىٰ الغرفة. استلقت الماركييزا علىٰ السرير تنظر إلىٰ السقف تحدث نفسها. وبحلول الضحىٰ استدعيت بيبيتا إلىٰ الباب وأُخبرت أنَّ البيريكول حضرت لتقابل السيدة. تذكرت بيبيتا المسرح، وأجابت بكلمات غاضبة أنَّ السيدة رفضت مقابلة البيريكول. حمل الرجل الرد إلىٰ باب الشارع لكن عاد مذهولًا بأنَّ السينيورا البيريكول متسلحة برسالة من الحاكم لتقابل السيدة. مشت بيبيتا علىٰ أطراف أصابعها إلىٰ السرير وبدأت تكلم الماركييزا. انتقل نظر العيون المذهولة إلىٰ وجه الفتاة. هزتها بيبيتا بلطف. حاولت الماركييزا بجهد شديد التركيز علىٰ ما كان يقال لها. لمرتين عادت لتستلقي رافضة أن تستوعب المعنىٰ، لكن في النهاية -كجمع الفريق أول لكتيبته المتفرقة للاجتماع تحت المطر في الليل- استجمعت ذاكرتها وتركيزها، وقليلًا من القدرات الأخرىٰ وضغطت جبهتها بألم وطلبت وعاء من الثلج. وعندما أُحضر الوعاء ضغطت طويلًا وهي ناعسةً بملء كفيها علىٰ صدغيها وخديها، ثم مع قيامها ظلت واقفة طويلًا متسندةً علىٰ السرير تنظر إلىٰ حذائها. أخيرًا رفعت رأسها بعزم وأمرت بمعطفها المزين بالفرو ووشاح. لبستهما ودلفت مترنحة إلىٰ أجمل غرفة استقبال، حيث كانت الممثلة واقفة تنتظرها.

كانت كاميلا قد عزمت أن تكون رسمية وصفيقة إذا أمكن، لكنَّها الآن كانت مصعوقةً لأول مرة بوقار المرأة العجوز. كانت

ابنة ميرسير تستطيع حمل نفسها في أحيان مع كل مميزات لقب المونتيمايور، وعندما كانت ثملة لبست عظمة هيكوبا[1]. بالنسبة لكاميلا بدت العينان النصف مغمضتين تحمل إشارات ضعف النفوذ وبدأت تتكلم بحياء:

«أتيت -سينيورا- لأتأكد أنَّك لم تسئ فهم أيٍّ ممَّا قلته في الأمسية التي شرفتيني فيها بحضور سعادتكم».

ردت الماركييزا: «إساءة فهم؟ إساءة فهم؟».

«يمكن أن تكوني سعادتكِ قد أسأتِ فهمي، واعتقدتِ أنَّ كلماتي كانت مهينة لسعادتك».

«مهينة لي؟!».

«سعادتك لست مستاءة من خادمتك المخلصة؟ تعلمين سعادتك أنَّ ممثلة فقيرة مثلي يمكن أن تنجرف وتتفوه بعكس قصدها ... هذا صعب جدًّا ... هذا كل شيء ...».

«كيف أكون مستاءة سينيورا؟ كل ما أستطيع تذكره هو أنَّك قدمت عرضًا جميلًا. أنت فنانة عظيمة. يجب عليك أن تكوني سعيدة، سعيدة. منديلي، بيبيتا ...».

تفوَّهت الماركييزا بهذه الكلمات بسرعة وغموض، لكن البيريكول كانت مرتبكة. استولىٰ عليها وخز العار. استحال لونها

---

(١) ملكة طروادة وزوجة بريام وابنة ملك فريجيا ديماس أوكيسيوس أوإله النهر سانغاريوس (ويكيبيديا).

للأحمر. في الأخير استطاعت أن تهمهم: «كانت في الأغاني التي بين مشاهد الكوميديا. كنت خائفة سعادتك . . .».

«نعم . . . نعم . . . تذكرت الآن. غادرت باكرًا. بيبيتا غادرنا باكرًا، أليس كذلك؟ لكن سينيورا أنت كريمة بما يكفي لتسامحي مغادرتي المبكرة، نعم؛ حتىٰ في وسط عرضك الرائع. نسيت لماذا غادرنا؟ بيبيتا . . . أوه، بعض التوعك . . .».

كان من المستحيل أن يغفل أي أحد في المسرح عن مقصود الأغاني. لم تستطع كاميلا إلَّا أن تفترض أنَّ الماركييزا -عن شهامة منقطعة النظير- تتظاهر أنَّها لم تلاحظ شيئًا. كانت عيونها تترقرق بالدموع: «لكنَّك طيبة جدًّا لتغاضيك عن تصرفي الطفولي -سينيورا- أقصد سعادتك. لم أعلم طيبتك. سينيورا اسمحِي لي أن أُقبِّل يدك».

مدت دونا ماريا يدها في دهشة. لم تتلقَ هذا التقدير منذ فترة طويلة. أكنَّ لها جيرانها وعمالها وخدمها بما فيهم بيبيتا تعظيمًا كبيرًا -لم تتلقَ هكذا تقدير أبدًا من ابنتها. استحث هذا مزاجًا جديدًا لدىٰ الماركييزا، مزاجًا يمكن تسميته استعطاف الثمالىٰ. أصبحت ثرثارة: «مستاءة . . .؟! مستاءة منكِ؟! من جميلتي . . . من طفلتي الموهوبة؟ من أنا -أم . . . امرأة ليست حكيمة ولا محبوبة- لكي أكون مستاءة منك؟ أحسست -ابنتي- وكأنني ماذا يقول الشاعر؟ - إنني أُفَاجَأ من خلال سحابة حوارات الملائكة. لم يزل صوتكِ يكشف عن عجائب في موريتو. عندما قلت:

«دون خوان، إن كان حبي يُقَدِّرُ

والإيمان الواثق أحمق

مخاوفي غاضبة

وبلا رغبات خفية

واثقة جدًا»

... إلىٰ آخره -هذا صحيح. ويا لها من إيماءة قمت بها في ختام اليوم الأول. هناك، ويدك هكذا. كالإيماءة التي قامت بها العذراء لجبريل مستفهمة: أنّىٰ يكون لي غلام؟ لا لا ستكرهينني الآن؛ لأنَّني سأخبرك بإيماءة قد تستعمليها يومًا ما. نعم، ستكون مناسبة للمشهد الذي تسامحين فيه دون خوان دي لارا. ربما عليَّ أن أخبرك أنَّني رأيت ابنتي تفعلها. ابنتي امرأة جميلة جدًّا ... يعتقد الجميع ذلك. هل ... هل تعرفيين دونا كلارا، سينيورا؟!».

«كانت سعادتها تشرفني بزيارة المسرح. أعرف الكونديسا جيدًا بالنظر».

«لا تبقِ هكذا -علىٰ ركبة واحدة- يا ابنتي: بيبيتا، أخبري جيناريتو أن يُحضر لهذه السيدة بعض الكعك فورًا. أعتقد -في يوم تشاجرنا- نسيت علامَ. أوه، ليس هنالك ما يستغرب،كلنا نحن الأمهات من وقت لآخر ... انظري، هل تستطيعين أن تقتربي أكثر؟ يجب عليك ألَّا تصدقي أهل المدينة عندما يقولون إنَّها لم تكن طيبة معي. أنت امرأة عظيمة وصاحبة طبع جميل وتستطيعين

رؤية أبعد ممَّا تستطيع العامة رؤيته في هكذا أمور. من دواعي السرور التكلم معك. يا لشعرك الجميل! يا له من شعر جميل! لم يكن من طبعها العاطفة الجياشة، أنا أعرف ذلك. لكن، أوه! ابنتي لديها مخزون مقدر من الذكاء واللباقة. كان كل ما حصل بيننا من سوء فهم هو ببساطة خطئي أنا. أليس من الجميل أنَّها سريعة جدًّا في الصفح عني؟ حصل شيء من تلك المشاجرات الصغيرة في ذلك اليوم. تفوهت كلتانا بكلام طائش وانصرفنا لغرفنا. ثم رجعت كلتانا لتصفح عنها الأخرىٰ. في الأخير فصل بيننا باب واحد كل واحدة منا تدفعه في الاتجاه المعاكس. لكنَّها في النهاية ... أخذت ... وجهي ... هكذا، بين كفيها البيضاوين. انظري! هكذا».

كادت الماركيزا أن تسقط عن كرسيها عندما انحنت للأمام ووجهها تسيل منه دموع الفرح وأبدت إيماءة الابتهاج الشديد. علي أن أقول إنَّ الإيماءة الأسطورية للحادثة لم تكن إلَّا حلمًا مترددًا.

«أنا سعيدة أنك هنا!».

أكملت قائلة: «الآن لقد سمعتها من شفتي، إنَّها لم تكن تسيء معاملتي، كما يقول البعض. اسمعي -سينيورا- الخطأ خطئي. انظري إلي. انظري إلي. كان هناك خطأ ما جعلني أُمًّا لابنة جميلة هكذا. أنا صعبة. أحاول. أنت وهي امرأتان عظيمتان. لا ، لا تمنعيني: أنت امرأة نادرة وأنا امرأة متوترة

فحسب . . . امرأة حمقاء . . . غبية. دعيني أقبل قدميك. أنا غير معقولة. أنا غير معقولة. أنا غير معقولة».

في تلك اللحظة بالتحديد سقطت العجوز من علىٰ الكرسي ورفعتها بيبيتا وقادتها لسريرها. رجعت البيريكول إلىٰ بيتها مذعورة وجلست طويلًا تنظر لعينيها في المرآة وكفيها علىٰ خدها.

لكن الشخص الذي رأىٰ أصعب لحظات الماركيزا كان مرافقتها بيبيتا. كانت بيبيتا يتيمة رُبيت علىٰ يدي تلك العبقرية الغريبة من ليما، كبيرة راهبات الدير مادري ماريا ديل بيلار. كانت المناسبة الوحيدة التي جمعت بين المرأتين العظيمتين (كما سيسفر عن ذلك التاريخ) وجهًا لوجه في اليوم الذي دعت دونا ماريا مديرة دير سانتا ماريا روسا دي لاس روساس وسألت إن كان بإمكانها أن تستعير بنتًا ذكية من الميتم لتكون مرافقتها. حدقت كبيرة الراهبات في العجوز الشمطاء. حتىٰ أحكم الحكماء في العالم ليسوا حكماء مثاليين ومادري ماريا ديل بيلار التي استطاعت استكشاف قلب الإنسان المسكين خلف أقنعة الخداع والتمرد دائمًا ما ترفض التنازل للماركيزا دي مونتيمايور. سألتها كثيرًا من الأسئلة الجيدة ثم توقفت برهة لتفكر. أرادت منح بيبيتا الخبرة الدنيوية بالعيش في القصر. أرادت أيضًا استمالة العجوز لاهتماماتها. كانت تمتلئ بسخط مظلم؛ لأنها تعلم أنَّها كانت تنظر إلىٰ واحدة من أثرىٰ النساء في البيرو وأعماهن.

كانت أحد هؤلاء الأشخاص الذين سمحوا لحياتهم أن تُنخر؛

لأنَّهم وقعوا في حب فكرة قبل قرون عديدة من ظهورها في موعدها المحدد في تاريخ الحضارة. ألقت بنفسها ضد تمنع عصرها لرغبتها إضافة بعض الكرامة للمرأة. في منتصف الليل تنتهي من حسابات الدير وتغيب في حلم يقظة مجنون تحلم بعصر تستطيع فيه النساء أن ينظمن أنفسهن لحماية النساء والمسافرات والخادمات والعجائز والمريضات والبنات اللائي وجدتهن في مناجم بوتوسي أو في غرف عمل تجار الملابس والبنات اللائي التقطتهن من عتبات الأبواب في ليالٍ ممطرة. لكن عليها دومًا في صباح اليوم التالي مواجهة حقيقة أن النساء في بيرو -بما فيهن راهباتها- يعشن حياتهن بشعارين، **الأول**: أن ما يقع عليهنَّ من ظلم هو فقط بسبب أنَّها ليست جذابة بما يكفي للاحتفاظ برجل يقوم علىٰ شؤونها، **والثاني**: أنَّ عناقًا من رجل هو ثمن كافٍ لكل مآسي العالم. لم تكن تعرف أي بلد عدا ضواحي ليما واعتقدت أن كل هذا الفساد كان الحالة الطبيعية للبشرية. بالنظر للوراء من قرننا نستطيع رؤية سذاجة أمنيتها. فشلت بضع وعشرون امرأة في ترك أي أثر في ذلك العصر. بالرغم من ذلك واصلت عملها بجد في مهمتها. شابهت الطائر في القصة الذي نقل مرة كل ألف سنة حبة قمح علىٰ أمل تشييد جبل ليصل إلىٰ القمر. يُربىٰ أشخاص كهؤلاء في كل عصر. يصرون بعناد علىٰ نقل حبهم من القمح ويستمدون نشوة معينة من سخرية المراقبين: «كم هي سخيفة ملابسهم!». نصيح: «كم هي سخيفة ملابسهم!».

حمل وجهها الأحمر الصافي الكثير من الطيبة ومثالية أكثر من الطيبة وقيادية أكثر من المثالية. احتاجت كل أشغالها ومستشفياتها وميتمها وديرها ورحلاتها الإنقاذية المفاجئة إلىٰ المال.

لم يحظَ أحدٌ بإعجابٍ منصف لطيبتها مثلها، لكنَّها كانت مُجبرة أن ترىٰ نفسها تضحي بطبيعتها -وتقريبًا بمثلها- لصالح قيادتها. كانت الصراعات التي خاضتها من أجل الحصول علىٰ مخصصاتها من رؤسائها في الكنيسة مخيفة جدًّا. في لفتة تُعدُّ أكثر لطفًا كان كبير أساقفة ليما يُسمَّىٰ كرهه لها بالكره الفاتنياني[1]. كان يعدُّ توقف زيارتها تعويضًا عن الهلاك (الموت).

لم تشعر مؤخرًا باجتياح تقدم العمر لخدها فقط، بل شعرت بإنذار أخطر! سرت في جسدها رعشة رعب -ليس خشية علىٰ نفسها- إنَّما خشية علىٰ عملها.

مَن في بيرو سيُقدِّر الأشياء التي تُقدِّرها؟!

وعندما استيقظت في فجر يوم ما؛ قامت برحلة سريعة في المستشفىٰ، والدير، ودار الأيتام تبحث عن روح تستطيع تدريبها؛ لتكون خليفتها ... هرولت تنظر من وجه ضائع إلىٰ آخر؛ متوقفة أحيانًا رجاءً لا قناعة.

مرَّت علىٰ مجموعة من الفتيات في الباحة يشرفن علىٰ الغسيل، فوقعت عيناها علىٰ الفور علىٰ فتاة في الثانية عشرة تعطي

---

(١) نسبة لفاشينوس، وهو رجل مكروه من الرومان.

التعليمات للأخريات علىٰ الحوض، وفي الوقت نفسه تروي لهم بحماسة درامية فائقة المعجزات الأقل احتمالية في الحدوث في حياة قديس ليما روس.

وهكذا؛ انتهىٰ البحث بالعصور علىٰ بيبيتا. تعليم العظمة صعب في أي عصر. لكن في خضم الحساسيات والغيرة التي في الدير؛ فلا بُدَّ أن يتم ببراعة منقطعة النظير، وبشكل غير مباشر. كلفت بيبيتا بالمهام غير المحببة علىٰ الإطلاق في الدير، لكنَّها في الوقت نفسه استوعبت جميع مناحي إدارته.

رافقت الآبيس[1] في رحلاتها، بالرغم من أنَّها كانت مسئولة عن البيض والخضار. وفي كل مكان، وعن طريق الصدفة تتاح ساعات تظهر فيها المديرة فجأة لتتكلم طويلًا مع بيبيتا -ليس في أمور الدين فحسب-، ولكن عن كيفية إدارة شئون النساء، وتجهيز العنابر الموبوءة، والتوسل من أجل الحصول علىٰ المال. كانت خطوة في تعليم العظمة هذه التي قادت لأن تصل بيبيتا في يوم ما إلىٰ القصر، وتتحمل الأعباء المجنونة المصاحبة لمرافقة دونا ماريا.

كانت في العامين الأولين تأتي في الظهيرة من حين لآخر، لكنَّها في الأخير انتقلت لتعيش في القصر. لم تتعلم أبدًا أن تتوقع السعادة؛ ومضايقات -كي لا نقول مخاوف- منصبها الجديد لم تبدُ

---

(١) كبيرة الراهبات.

مبالغًا فيها لفتاة في الرابعة عشرة. لم تتوقع أنَّ كبيرة الراهبات كانت تحوم فوق البيت بنفسها مقدرة الضغوطات، وتراقب اللحظة التي يصبح فيها العبء مؤذيًا.

كان القليل من امتحانات بيبيتا ذا طابع بدني، مثلًا: كان الخدم في البيت يستغلون وعكة دونا ماريا، فيفتحون غرف النوم لأقربائهم ويسرقون ما شاءوا. تصدت لهم بيبيتا وحيدة، فعانت من الاضطهاد والمضايقات الصغيرة والمقالب. كان لعقلها أيضًا معاناته الخاصة. عندما كانت ترافق دونا ماريا خلال قيامها بمهامها في المدينة تستولي علىٰ العجوز الرغبة في الهرولة إلىٰ كنيسة؛ لأنَّها كانت تعوض ما فقدته من إيمان بالسحر. كانت تقول: «ابق هنا تحت الشمس طفلتي الصغيرة، لن أغيب طويلًا»، ثم ما تلبث أن تنسىٰ دونا ماريا نفسها في أحلام يقظتها أمام المذبح، وتغادر الكنيسة من الباب الآخر! ربَّت مادري ماريا ديل بيلار بيبيتا علىٰ الانقياد الأعمىٰ تقريبًا، وعندما كانت تمرُّ الساعات كانت تدلف إلىٰ الكنيسة، وتتأكد من أنَّ سيدتها لم تزل بالداخل! وبالرغم من ذلك؛ كانت ترجع إلىٰ ناصية الشارع، وتنتظر بينما تغطي الظلال شيئًا فشيئًا الميدان!

هكذا؛ بالانتظار في الخارج عانت من كل أنواع عذاب الوعي لطفلة صغيرة. كانت ما تزال ترتدي لبس دار الأيتام، الذي كان كفيلًا بتغيره دقيقة تفكير من جانب دونا ماريا، وعانت من هلوسات بدا فيها الرجال ينظرون إليها ويتهامسون لم تكن هذه

دائمًا هلوسات. لم تكن معاناة قلبها أقل قدرًا؛ لأنه لبضعة أيام تصبح دونا ماريا فجأة مدركة لوجودها وتتكلم معها بلطف وظرافة وتظهِر لبضع ساعات الأحاسيس المرهفة التي في الرسائل، ثم في اليوم التالي تنطوي علىٰ نفسها مرة أخرىٰ.

بينما لا تكون قاسية أبدًا -تصبح باردة وغير مبالية- كانت بدايات الأمل والحب هذه التي كانت بيبيتا في أمسِّ الحاجة لها تتعرَّض للجرح. كانت تمشي علىٰ رؤوس أصابعها في القصر، صامتة حائرة، متشبثة فقط بإحساسها بالخدمة، ووفائها (لأمها في الرب) مادري ماريا ديل بيلار التي أرسلتها للقصر.

❁ ❁ ❁

أخيرًا: ظهرت حقيقة جديدة كان لها أثر معتبر علىٰ حياة كلٍّ من الماركييزا ومرافقتها. **كتبت الكونديسا**: «أمي الغالية! أكثر ما أرهقني الطقسُ، وما زاد الأمر صعوبة: أنَّ الحدائق والبساتين بدأت تُزهر؛ **لذلك**: أستميحك عذرًا، أن أختصر في رسائلي عن طولها المعتاد. إذا رجع فيسينتي قبل رحيل البريد؛ فسيكون سعيدًا لإنهاء الورقة، وتزويدك بالتفاصيل المرهقة عني، والتي يبدو أنَّك تستمتعين بها جدًّا، لن أذهب إلىٰ جريجلاند في بروفانس[1]، كما كان متوقعًا هذا الخريف؛ لأنَّ طفلي سيُولد في بداية أكتوبر».

---

(١) محافظة فرنسية سابقة.

- «طفل؟!».

استندت الماركييزا إلىٰ الحائط! توقَّعت دونا كلارا الإلحاحات المرهقة التي سيُوقظها هذا الخبر لدىٰ أمها؛ لذا: سعت لتخفيف ذلك عن طريق إعلان الأمر بصورة عادية في الرسالة. لم تنجح الخدعة! كانت الرسالة الثانية والأربعون هي الجواب. الآن أصبح لدىٰ الماركييزا ما يقلقها لفترة طويلة. ستصبح ابنتها أمًّا! هذا الحدث -الذي سبب تقريبًا الملل لدونا كلارا- أطلق أبعادًا جديدة من المشاعر لدىٰ الماركييزا! أصبحت منجمًا للمعرفة والاقتراحات الطبية. مشطت المدينة تبحث عن العجائز الحكيمات، وأفرغت في رسائلها كل الحِكم الشعبية للعالم الجديد. استسلمت لأكثر أنواع التطير مقتًا. مارست محرمات مهينة لحماية طفلتها. رفضت السماح بوجود العُقد في البيت. منعت الخادمات من ربط شعورهن، واحتفظت لنفسها برموز سخيفة من أجل ولادة سليمة، علّمت الدرجات الزوجية من السلم بطباشير أحمر، وكانت الخادمة التي تطأ علىٰ الطباشير الأحمر عن طريق الخطأ؛ تُساق خارج المنزل وهي تصرخ والدموع تجري علىٰ خديها. كانت دونا كلارا بين يدي طبيعة خبيثة تحتكر حق إلقاء الدعايات الأكثر رعبًا علىٰ أطفالها. مارست أجيال من النساء المزارعات شعائر استرضاء للطبيعة أشعرتهن بالراحة. ألمح جيش كبير من الشهود إلىٰ أنَّ هذه الطقوس لها أساس من الصحة، أقله لم تكن لتسبب الضرر، وربما جاءت بالخير.

لم تكتفِ الماركييزا بهذه الطقوس الوثنية، فدرست تعاليم المسيحية أيضًا. كانت تستيقظ في الفجر تتهادىٰ في ظلام الشوارع؛ لحضور القداس المبكر. احتضنت أعمدة المذابح بشكل هستيري؛ لتنتزع من التماثيل البراقة إشارة -فقط إشارة- شبح ابتسامة -إيماءة خفية- بالرضا من رأس شمعي. هل سيكون كل شيء علىٰ ما يرام أيتها الأم الحنون؟ هل سيكون كل شيء علىٰ ما يرام؟!

أحيانًا بعد يوم من اللجوء المحموم لهذه الابتهالات يجتاحها القرف والاشمئزاز. الطبيعة صماء، الرب غير مبالٍ، لا شيء في قدرة الإنسان يستطيع أن يغير قانون الطبيعة. ثم علىٰ ناصية طريق تقف مترنحة من اليأس، مستندة إلىٰ حائط ترجو أن تغادر عالمًا ليس له خطة. لكن سرعان ما ينبثق إيمانها بالعظمة من داخلها، وتسرع بالعودة إلىٰ المنزل؛ لتوقد الشموع فوق سرير ابنتها.

أخيرًا: حان الوقت لأداء الطقس الذي تنتظره البيوت البيروفية بلهفة. حجَّت إلىٰ مزار سانتا ماريا ديل لوكسامبوكوا. إذا تبقَّىٰ أي نفع من التعبد؛ سيوجد بالتأكيد في زيارة لهذا المزار العظيم. اعتُبرت الأرض مقدسة علىٰ مر ثلاثة أديان، حتىٰ قيام مخبولي حضارة الإنكا باحتضان الأشجار، وجلد أنفسهم بالسياط؛ لينتزعوا إرادتهم من السماوات.

هناك حملت الماركييزا علىٰ كرسيها عابرة لجسر سان لويس راي صاعدة الهضاب متوجهة إلىٰ تلك المدينة بنسائها الممتلئات

المتحزمات، مدينة هادئة تتحرك ببطء وتبتسم ببطء، مدينة بهواء نقي كالكريستال، باردة كالينابيع التي تغذي نوافيرها، مدينة لها أجراس، أجراس هادئة وموسيقية، ضُبطت؛ لتصدر أسعد المشاجرات. لو صدر أيُّ شيء يُسبب الانزعاج في مدينة كلوكسامبوكوا كان يستوعبه بطريقة ما جلال الإنديز الطاغي، وجو السعادة الهادئ الذي سرىٰ في الشوارع. وفي الحال: رأت الماركييزا من بعيد الجدران البيضاء وهي تجثو علىٰ ركب أعلىٰ القمم، فما لبثت أن توقفت أصابعها عن تحريك السبحة وانقطعت شفتاها عن الدعاء المتواصل، لم تترجل في النزل، بل تركت بيبيتا لترتب إقامتهم، ذهبت إلىٰ الكنيسة وجثت علىٰ ركبتيها طويلًا وقد ضمت كفيها.

كانت تستمع لموجة الاعتزال الجديدة التي بدأت تتعالىٰ داخلها، ربما قد حان الوقت لتدع ابنتها وأربابها؛ ليعتنوا بشئونهم، لم يزعجها همس العجائز في ملابسهن المبطنة وهُنَّ يبعن الشموع والميداليات، ويتحدثن عن المال من الفجر إلىٰ المساء، لم يشتت انتباهها الحارس المتسلط الذي حاول الحصول علىٰ المال لسبب أو لآخر، والذي -من حقده- اضطرها لتغير سكنها بحجة إصلاح بلاطة في الأرضية. خرجت علىٰ الفور؛ لتجلس في ضوء الشمس علىٰ عتبات النافورة، شاهدت مواكب المعاقين الصغيرة وهي تطوف حول الحدائق، رأت ثلاثة صقور تنطلق نحو السماء.

حدَّق فيها الأطفال الذين يلعبون بجانب النافورة للحظة، ثم

انصرفوا مذعورين، لكن لاما[1] (سيدة برقبة طويلة وعيون ضحلة جميلة، مثقلة بالفرو الذي يغطيها تتلمس طريقها بعناية وهي تنزل عتبات السلم الذي بدا، وكأنَّه لا نهاية له)، اقتربت منها -أي: اللاما-، وقدَّمت للماركيزا قطعة مخملية مع فتحات للأنف؛ لتمسح عليها. تولي اللاما اهتمامًا كبيرًا بالناس حولها، بل هي مغرمة بالتظاهر أنَّها هي أيضًا واحدة منهم بإدخال نفسها في محادثاتهم، وكأنَّها في لحظة سترفع صوتها وتساهم بالتعليقات الباهتة والمفيدة.

بعد قليل أحاط بدونا ماريا عدد من هؤلاء الأخوات -حيوانات اللاما- اللاتي بدين علىٰ وشك سؤالها عن سبب ضمها ليديها هكذا، وعن ثمن الياردة للوشاح الذي ترتديه.

كانت دونا ماريا قد رتبت وصول أي رسالة من إسبانيا إليها فورًا عن طريق رسول خاص، سافرت من ليما ببطء، وحتىٰ الآن وهي جالسة في الساحة هرع إليها أحد صبيانها من المزرعة ووضع في يدها طردًا كبيرًا ملفوفًا بورق ثخين تتدلىٰ منه شذارات من شمع الختم، ففكَّت الورق الملفوف ببطء، وبإشارات رواقية منضبطة قرأت رسالة ابنتها، كانت الرسالة متخمة بالتعليقات الجارحة، غير أنَّها صيغت ببراعة فائقة، ورُبما صيغت؛ ليكون الإيذاء لطيفًا فقط لا غير، بينما كانت دونا ماريا تمضي آخر الظهيرة في الكنيسة

(١) حيوان اللاما.

والميدان تُركت بيبيتا لتجهيز محل الإقامة. أرت الحمالين أين تُوضع سلال الخوص الكبيرة، وشرعت في تحضير المذبح والشمعدانات، والقطع المطرزة ورسومات دونا كلارا. نزلت إلىٰ المطبخ وأعطت الطباخ التعليمات بدقة حول تحضير عصيدة معينة تتغذىٰ عليها الماركييزا بشكل أساسي. ثم رجعت إلىٰ الغرف وانتظرت. قرَّرت كتابة رسالة للآبيس، تسمَّرت طويلًا وهي ممسكة بالريشة تحدق بعيدًا وشفاهها ترتعش. رأت وجه مادري ماريا ديل بيلار محمرًا ويانعًا وعيونها السوداء الرائعة.

سمعت صوتها كما كان في ختام وجبات العشاء (حيث يجلس الأيتام ينظرون إلىٰ الأسفل مُكتفين أياديهم)، تُعلِّقُ علىٰ أحداث اليوم، أو كما كان عندما تقف في ضوء الشموع بين أسِرَّة المستشفىٰ تتكلَّم عن موضوع التأمل لتلك الليلة، لكن الذي تتذكره بيبيتا بكل وضوح من بين كل الأشياء الأخرىٰ هي المقابلات المفاجئة عندما ناقشت الآبيس مهام المنصب معها (فاقدة للصبر حتىٰ تكبر الفتاة). كانت تكلم بيبيتا كأنَّها نظيرتها، خطاب كهذا هو مقلق وجذاب لطفلة ذكية وأساءت مادري ماريا ديل بيلار استغلال ذلك. علَّمت بيبيتا كيف تشعر وتتصرف بما يفوق عمرها. ومن غير أن تشعر الآبيس سلطت علىٰ بيبيتا كل وهج شخصيتها كما فعل جوبيتر مع سيميلي[(١)].

(١) جوبيتر وسيميلي هما رمزان من إحدىٰ الأساطير اليونانية الرومانية، وفيها وقع ملك الآلهة (جوبيتر) في حب إنسانة (سيميلي)، وعندما ظهر أمامها أحرقها نوره.

فتملك بيبيتا إحساس بالرعب من عدم قدرتها علىٰ حمل المسئولية، فأخفت ذلك وانتحبت باكية. ألقت الآبيس الطفلة في انضباط هذه العزلة الطويلة، حيث عانت بيبيتا، رافضة تصديق أنَّها تم التخلي عنها. والآن في هذا النزل الموحش في هذه الجبال الموحشة -حيث أصابها الدوار من الارتفاع- تاقت بيبيتا إلىٰ حضور عزيزتها، الشيء الوحيد الحقيقي في حياتها.

كتبت رسالة كلها بقع حبر، وأفكار مفككة، ثم نزلت لتبحث عن فحم جديد وتتذوق العصيدة، دخلت الماركييزا وجلست علىٰ الطاولة، وهمست: «لا أستطيع فعل المزيد، ما سيكون سيكون»، نزعت من عنقها قلادات التطير، وألقت بها في الشمعدان المشتعل. كان لديها شعور غريب بأنَّها استعدت للرب بصلواتها وأدعيتها الكثيرة؛ **فلذلك**: خاطبته الآن بثورية: «بعد كل هذه الأمور في أيادي آخرين، لن أدَّعي بعد الآن أنَّني السبب في أقل تأثير، ما سيكون سيكون».

جلست مدة طويلة -ويديها علىٰ خديها- تصنع فراغًا في عقلها. سقطت عيناها علىٰ رسالة بيبيتا، فتحت الرسالة، وبدأت تقرأ، قرأت نصف الرسالة كاملًا قبل أن بدأت تعي معاني الكلمات: «لكن كل هذا لا شيء إذا رضيتِ وأحببتِ أن أبقىٰ معها، كان عليَّ ألَّا أخبركِ أن بين الفينة والأخرىٰ تقوم خادمات القصر الخبيثات بحبسي في إحدىٰ الغرف والبسرقة، وربما ظنَّت السيدة أنِّي سرقتها! أتمنىٰ ألَّا يحدث ذلك. أتمنىٰ أن تكوني بخير،

وليست لديك أي متاعب، سواء في المستشفىٰ، أو دار الأيتام.
وبالرغم من أنَّني لا أراكِ أبدًا؛ أفكر فيكِ دائمًا، وأتذكر ما أخبرتني به عزيزتي -أمي في الرب- أريد تنفيذ ما تأمرين به، لكن إذا استطعتِ؛ دعيني أرجع إلىٰ الدير لأيام قليلة، لكن إن لم تريدي هذا؛ فلا داعي، لكنَّني وحيدة جدًّا، ولا أتحدث مع أحد، وأحيانًا أتساءل: هل تتذكرينني أم لا؟! وإذا ما كنتِ تستطيعين إيجاد دقيقة لتكتبي رسالة صغيرة، أو شيئًا آخر سيساعدني علىٰ الصمود؟! لكنِّي أعرف كم أنت مشغولة! ...».

لم تكمل دونا ماريا القراءة، طوت الرسالة ووضعتها جانبًا، للحظة كان يملؤوها الحسد تاقت لتحكم روحًا هكذا، كما فعلت هذه الراهبة. أكثر ما تاقت إليه تقريبًا هو أن تعود إلىٰ هذه العفوية في الحب، وأن تلقي بعيدًا بعبء الكبرياء الذي حمله حبها، أخذت الكتاب المقدس، وحاولت صب اهتمامها علىٰ الكلمات.

بعد ذلك بلحظة؛ شعرت فجأة بالحاجة لقراءة الرسالة كاملة مرة أخرىٰ؛ لتكشف -إن أمكن- عن سر كل هذه السعادة، عادت بيبيتا بالعشاء في يدها، تتبعها إحدىٰ الخادمات. رفعت دونا ماريا رأسها من قراءة كتابها تنظر إلىٰ زائرتها من السماء. مشت بيبيتا علىٰ أطراف أصابعها تحضر الطاولة وهامسة بالتعليمات لمساعدتها، ثم قالت أخيرًا: «عشاؤكِ جاهزٌ سيدتي!».

«لكنَّك يا طفلتي! ستأكلين معي أليس كذلك؟!».

في ليما كانت بيبيتا تجلس مع سيدتها علىٰ الطاولة.

«أعتقد أنكِ متعبة سيدتي، فتناولت العشاء».

قالت لنفسها: «لا تريد أن تأكل معي! تعرف من أنا، ومع ذلك رفضت!».

ثم بعد أن شعرت أنَّها اقترفت خطأ؛ سألت بيبيتا: «هل تريدين أن أقرأ لكِ سيدتي أثناء أكلك؟».

«لا؛ يُمكنك الذهاب للنوم إن أردتِ».

«شكرًا سيدتي».

قامت دونا ماريا، واقتربت من الطاولة، وضعت يدًا واحدة علىٰ ظهر الكرسي، ثم قالت بتردد: «طفلتي العزيزة سأرسل بعض الرسائل إلىٰ ليما في الصباح، إذا لديكِ رسائل يُمكنني أن أضمها إلىٰ رسائلي . . .».

«لا؛ ليس لدي شيء!».

ثم عقبت سريعًا: «لا بُدَّ أن أنزل لأحضر الفحم الجديد . . .».

«لكن عزيزتي! أنتِ لديك رسالة لـمادري ماريا ديل بيلار أليس كذلك؟!».

تظاهرت بيبيتا بأنَّها منشغلة بإعداد المشاعل، ثم قالت: «لا؛ لن أرسلها».

علمت أنَّه خلال الصمت الطويل الذي ساد الغرفة أن الماركييزا كانت تنظر إليها، لا تدري ماذا تصنع.

«غيَّرتُ رأيي . . .».

«أنا متأكدة أنَّها ستحب استلام رسالة منكِ بيبيتا، سيجعلها ذلك سعيدة حقًّا! أنا متأكدة . . .».

بدأ وجه بيبيتا بالاحمرار، قالت بصوت عالٍ: «ذكر حارس النزل أنَّه سيكون هناك فحمٌ جديد جاهز للاستخدام في المساء، سأجعلهم يحضرونه الآن».

استرقت النظر إلىٰ العجوز، ورأت أنَّها ما زالت تحدق فيها بعيون متسائلة حزينة! شعرت بيبيتا أنَّ هذه أمور يجب ألَّا يتحدث فيها، لكن هذه العجوز الغريبة بدا أنَّها تأثَّرت بالأمر بقوة، لدرجة أنَّ بيبيتا كانت مستعدة للتنازل والبوح بإجابة إضافية: «لا؛ كانت رسالة سيئة، لم تكن رسالة جيدة!».

شهقت دونا ماريا: «لماذا عزيزتي؟! أظنُّ أنَّها جميلة جدًّا، أنا متأكدة صدقيني! لحظة ما الذي جعلها رسالة سيئة؟!».

تقطب وجه بيبيتا، وهي تحاول اصطياد كلمة تنهي بها الأمر، قالت: «لم تكن . . . لم تكن شجاعة».

ثم لم تتفوَّه بكلمة بعد ذلك، أخذت الرسالة معها إلىٰ غرفتها، حيث سُمع صوت تمزيقها للرسالة، ثم أوت إلىٰ فراشها، واستلقت تحدق في الظلام، وما زال ضميرها يؤنبها علىٰ التحدث بهذه الطريقة، جلست دونا ماريا إلىٰ طبقها مندهشة! لم تستحضر يومًا الشجاعة في الحياة، أو في الحب. سرقت عيناها

قلبها. تفكرت في تمائمها وسبحها، وثملها وابنتها! تذكرت علاقتهما الطويلة مكتظة بحطام الحوارات المنبوشة، وبالإهانات المتوهمة والثقة في غير محلِّها، وتهم الإهمال والإقصاء (لكن؛ لا بُدَّ أنَّها كانت مغضبة في ذلك اليوم. تذكرت أنَّها ضربت الطاولة بيدها).

بكتْ قائلةً: «لكن؛ لم يكن ذلك خطأي، ليس خطئي أن كنت هكذا، كان ظرفًا، كانت هذه الطريقة التي رُبيت بها، غدًا أبدأ حياة جديدة، انتظري وسترين طفلتي العزيزة . . .».

أخيرًا؛ نظفت الطاولة، وكتبت ما سمته بالرسالة الأولىٰ، رسالتهما الأولىٰ المتعثرة في الشجاعة، تذكرت وهي يعلوها العار من سؤالها لابنتها -بشكل مثير للشفقة- عن مدىٰ جمالها، وأنَّها اقتبست بجشع العبارات الراقية التي جادت بها دونا كلارا عليها في رسائلها الأخيرة، لم تستطع دونا ماريا تذكر تلك الصفحات، لكنَّها استطاعت كتابة صفحات جديدة متحررة ومعطاءة، لم يعتبر أحد هذه الرسائل متعثرة، إنَّها الرسالة السادسة والخمسون الشهيرة والمعروفة لدىٰ كاتب الموسوعات بكورينثيانها الثاني بسبب الفقرة غير أخلاقية عن الحب: «من بين آلاف البشر الذين نلتقيهم في هذه الحياة يا طفلتي . . .»، إلىٰ آخره[1].

---

(١) الكورينثيان الثاني: إحدىٰ رسائل العهد الجديد من الإنجيل.

انتهت الماركيزا من الرسالة قُرب الفجر، فتحت باب شرفتها ونظرت إلىٰ صفوف النجوم المتلألئة فوق الإنديز خلال ساعات الليل! قِلَّةٌ هم مَن استطاعوا سماعها، كانت السماء صاخبة بغناء الأبراج السماوية، أخذت شمعة إلىٰ الغرفة المجاورة، ونظرت إلىٰ بيبيتا وهي نائمة، وأزاحت شعرها المبتل عن وجهها، همست: «دعيني أعيش الآن! دعيني أبدأ مجددًا!».

بعد يومين بدأوا بالرحيل عائدين إلىٰ ليما، وفي أثناء عبورهم لجسر سان لويس راي أودىٰ بهم الحادث الذي نعرفه.

الفصل الثالث

إيستبان

في صبيحة يوم عُثر علىٰ توأم صِبية في سلة اللقطاء التابعة لدير سانتا ماريا دي لاس روساس، عُثر علىٰ أسماء لهما حتىٰ قبل حضور الممرضة، لكنَّ الأسماء لم تكن مفيدة لهما، كما هو الحال معنا؛ لأنَّه كان من الصعب تمييز أحدهما عن الآخر، لا توجد وسيلة لمعرفة أبويهما، لكنَّ ثرثرة أهل ليما -بعد ملاحظتهم لمدىٰ استقامتهما وصمتهما وكآبتهما- أبرزتهما كقشتاليين، ومهَّدت لهم الطريق لدخول الأبواب المزخرفة، كانت الآبيس في الدير أكثر مَن اقترب ليكون وليَّ أمرهما، صارت مادري ماريا ديل بيلار تكره كل الرجال، لكنَّها كانت مغرمة بمانويل وإيستبان، كانت تدعوهما إلىٰ مكتبها في آخر الظهيرة وترسل في طلب بعض الكعك من المطبخ، وتقص عليهم قصص سيد يهوذا المكابي[١]، ومصائب هارلكوين الستة والثلاثين، أضحت تحبهم لدرجة أنَّها تجد نفسها تحدق بعمق

---

(١) من زعماء اليهود في القرن الثاني قبل الميلاد، وأحد المناضلين من أجل الحرية. [ويكيبيديا].

في عيونهما السوداء الكالحة تبحث عن تلك الصفات التي تظهر عندما يصبحون رجالًا، كل ذلك القبح، كل تلك القسوة والوحشية، التي شكَّلت العالم البغيض الذي كانت تعمل فيه، نشأوا قرب الدير حتىٰ تخطَّوا قليلًا العمر الذي به أصبح وجودهم يُشكِّل إلهاءً للأخوات المتفانيات، من حينها أصبحوا مرتبطين بمقدسات المدينة بشكل غامض، قاموا بتهذيب شجيرات الممر وتلميع كُلِّ الصلبان، ومرَّروا قطعة رطبة مرة كُلَّ عام علىٰ أسقف الكنيسة، كان الجميع في ليما يعرفهم جيِّدًا، وكان عندما يرون أحد القساوسة خلال شوارع ليما حاملًا حِمْله الثمين إلىٰ غرف المرضىٰ يُرىٰ إيستبان أو مانويل يمشيان خلفه بخطوات ولهفة يلوحون بالمبخرة، لكن مع التقدُّم في العمر لم يُبديا رغبة في الحياة الكنسية، شيئًا فشيئًا امتهنوا النسخ، كان هناك القليل من المطابع في العالم الجديد، وسرعان ما أصبح للولدين مصدر معيشة من طباعة الكوميديا للمسرح، والأغاني الشعبية العامة، والإعلانات للتجار، علاوة علىٰ ذلك تولوا الطباعة لمؤلفي الترانيم، وطبعًا أعدادًا لا متناهية من موشحات موراليس وفيتوريا[١]، ولأنَّه لم تكن لديهم عائلة، وكانوا توأمًا، وربتهم امرأة كانا صامتيْنِ.

كان لديهما فضول خجول عن مدىٰ الشبه بينهما، كان عليهما العيش في عالم، حيث الشبه بينهما هو مادة التعليق الدائم

(١) الأول: أحد أبرز مؤلفي الموسيقىٰ الإسبان في عصر النهضة، والثاني: أحد الفلاسفة والقانونين وعالم دين كاثوليكي من عصر النهضة.

والمزاح، بالنسبة لهما لم تكن هذه النكات ظريفة أبدًا، واحتملوا الدعابة الأزلية بصبر بارد، ومنذ تعلمهما الكتابة اخترعَا لغة سرية لهما، لغة لم تعتمد علىٰ الإسبانية في مفرداتها، ولا جملها، لجآ إليها فقط عندما يكونان لوحدهما، أو لفترات طويلة في لحظات التوتر يتهامسان بها في وجود الآخرين كان كبير أساقفة ليما فقيهًا لغويًّا إلىٰ حدٍّ ما، انخرط في اللهجات حتىٰ إنه طور قائمة بالتعبيرات الصوتية والصامتة من اللاتينية إلىٰ الإسبانية، ومن الإسبانية إلىٰ الإسبانية الهندية، صنَّف دفاتر للتقاليد الغريبة من أجل شيخوخة مسلية خطط أن يمتع بها نفسه في عقاره خارج سيقوفيا[١].

وبالتالي؛ عندما سمع في يوم ما عن اللغة السرية للأخوين التوأم، قصَّ بعضًا من ريشه، وأرسل يستدعيهما، وقف الولدان في انكسار علىٰ سجل دراساته الغني، بينما كان هو يحاول أن يستخرج شيئًا من كلمة رغيف، أو شجرة، أو فعل رأىٰ، أو رأيته، التي كانا يستعملانها، لَمْ يعرفا لِمَ كانت هذه الحادثة المروعة بالنسبة لهما. نزفا. تلا كل سؤال من أسئلة كبير الأساقفة صمتٌ طويل قبل أن يتمتم أحدهما أخيرًا بالإجابة، ظنَّ الراهب أنَّهما كانا تحت سطوة مركزه وفخامة السكن، لكن في النهاية -في حيرة شديدة- أحس بوجود تحفظ أعمق، وسمح لهما آسفًا بالانصراف، ما هذه العلاقة التي فيها تبادل القليل من الكلمات عن الأكل والملبس والعمل،

وفيها تحفظ غريب من أن ينظر أحدهما إلىٰ الآخر، ولو لمحة، ما هذه العلاقة، ألقي فيها اتفاق ضمني علىٰ ألَّا يظهر أحدهما في رفقة الآخر في المدينة، وأن ينجز كل منهما نفس الأعمال، لكن بالسير في طرق مختلفة؟

صاحب كل ذلك احتياج شديد من أحدهما إلىٰ الآخر، احتياج من شدته أظهر معجزات تلقائيًّا، كما يصدر الهواء الرطب في يوم ساخن البرق. كانت هذه اللغة رمزًا لهُويتهما العميقة مع بعضهما، وكما أن الاعتزال كلمة غير ملائمة لوصف التغير الروحي الذي حل علىٰ الماركييزا دي مونتيمايور في تلك الليلة في النزل في كلوكسامبوكوا؛ فكذلك: فإنَّ الحب كلمة غير ملائمة لوصف ذلك الاتحاد المضمر، والذي يكاد يكون مخجلًا بين هذين الأخوين، نادرًا ما كان الأخوان علىٰ علم بهذا الأمر، لكن توارد الخواطر كان أمرًا كثير الحدوث في حياتهما فعندما يرجع أحدهما إلىٰ المنزل؛ كان الآخر دائمًا علىٰ علم بذلك، في حين ما زال هو علىٰ بعد عدة طرق من المنزل.

اكتشفوا فجأة أنَّهم ملُّوا من النسخ، ذهبوا إلىٰ البحر، وعثروا علىٰ عمل في تحميل وتفريغ السفن دون شعور بالعار من العمل جنبًا إلىٰ جنب مع الهنود، قادَا فرقة خلال المحافظات، وقطفوا الفاكهة، قادا عبارات وكانا دائمًا صامتيْنِ. استمد وجههما الكئيب من العمال ملامح رجل غجري، نادرًا ما كانا يقصان شعرهما، وتحت الغطاء الداكن كانت عيناهما تنظر إلىٰ الأعلىٰ فجأة

مندهشة، وشاحبة شيئًا ما، كان لكل منهما كل العالم بعيدًا وموحشًا وعدائيًا عدا عالم أخيه . . .

لكن أخيرًا؛ سقط علىٰ هذه الوحدة شبحٌ! ألقىٰ هذا الشبح حب النساء، عادا إلىٰ المدينة، وواصلا نسخ الأجزاء للمسرح، في إحدىٰ الليالي سمح لهما المدير الذي يشرف علىٰ قطع الحشائش بالدخول مجانًا، لم يرُق للولدان ما وجداه هناك، حتىٰ الكلام بالنسبة لهما كان عبارة عن صورة الصمت الأقل قدرًا، فكم كان عقيمًا الشعر الذي هو صورة الكلام الأقل قدرًا، كانت كل تلك الإشارات إلىٰ الشرف والسمعة والحب، وكل الاستعارات عن الطير وإكيليس[1]، ومجوهرات سيلان[2] مرهقة. في حضرة الأدب كان لديهما نفس الذكاء الشاحب الذي يلوح أحيانًا خلف أعين كلب، لكن جلسا بصبر يُحدِّقان في الشموع الساطعة، والملابس الفخمة، بين مقاطع الكوميديا خرجت البيريكول عن دورها، وقامت بارتداء اثنتي عشرة تنورة داخلية، ورقصت أمام ستارة المسرح، كان لدىٰ إيستبان بعض النسخ الذي ما زال عليه القيام به -أو هكذا تظاهر-، وعاد إلىٰ البيت مبكرًا، بينما بقي مانويل في المسرح، تركت جوارب البيريكول وحذاءها الأحمر أثرها، كان كل من الأخوين أحضر وحمل الرسائل صعودًا وهبوطًا علىٰ الدرجات المغبرة خلف المسرح، رأيَا فتاة عصبية المزاج أمام مرآة

---

(١) أحد أبطال حرب طروادة.

(٢) الاسم القديم لسيريلانكا.

تلبس صدرية متسخة ومتصلة بجواربها، بينما مدير المسرح يقرأ عليها دورها لتحفظه.

سمحت لبرهة لانفجار عينيها المدهشتين أن يقع علىٰ الولدين، وتبدد فورًا عند إدراكها مستمتعة أنَّهما توأم، قامت فورًا بجرهما إلىٰ الغرفة، وأجلستهما جنبًا إلىٰ جنب، أخذت تتفحص بعناية ومتعة وبلا هوادة كل بوصة من وجهيهما، حتىٰ وضعت أخيرًا يدها علىٰ كتف إيستبان صائحة، هذا هو الأصغر، كان ذلك قبل عدة سنوات، ولم يفكر أي من الأخوين في تلك الحادثة مرة أخرىٰ، من حينها بدت كل أعمال مانويل تقوده بجانب المسرح، في وقت متأخر من الليل يتسلل بين الأشجار تحت غرفة ملابسها.

لم تكن المرة الأولىٰ التي يُعجب فيها مانويل بامرأة (كلا الأخوين سحرا نساء كان هذا يحدث غالبًا، لكن بالأخص خلال سنواتهما علىٰ واجهة البحر لكن كل ذلك تم ببساطة لاتينية). لكن كانت تلك المرة الأولىٰ التي كان فيها عزمه وخياله عاجزيْنِ، لقد فقَدَ ميزة الطبع البسيط، وهو التفريق بين السعادة والحب، لم تعد السعادة ببساطة في الأكل، صارت معقدة بالحب!

في ذلك الوقت بدأت تلك الخسارة المجنونة للنفس، ذلك الذهول عن كل شيء، عدا الأفكار الدرامية عن المحبوبة، تلك الحياة الداخلية المحمومة كلها تدور حول البيريكول التي كانت ستُصعق وتشمئز لو سُمح لها أن تتنبأ بها، لم يقع هذا المانويل في الحب عن طريق تقليد الأدب، لم يكن بسببه -في كل الأحوال-

أن نطق أكثر لسان لاذع في فرنسا قبل خمسين عامًا فقط قائلًا: «**لم يكن ليقع الناس في الحب مطلقًا إذا لم يسمعوا عنه!**»، قرأ مانويل قليلًا، ذهب مرة واحدة إلىٰ المسرح، حيث من بين كل الأماكن تعلو خرافة أنَّ الحب هو التفاني، وعكست أغاني الحانات البيروفية التي قد يكون استمع لها -بعكس نظيراتها الإسبانية- قليلًا جدًّا من العقيدة الرومانسية للمرأة المثالية، وحينما حدَّث نفسه أنَّها كانت جميلة وغنية وظريفة إلىٰ حدٍّ مُرهقٍ، وعشيقة الحاكم، ولا واحدة من هذه الصفات -التي جعلتها أبعد منالًا- كانت قادرة لتروي ظمأ فضوله وحماسة الغضب؛ **لذلك**: استند علىٰ الأشجار في الظلام -ومفاصل أصابعه بين أسنانه-، واستمع إلىٰ دقات قلبه العالية، لكنَّ الحياة التي عاشها إيستبان كانت مليئة بما يكفي، لم يكن في خياله مساحة لولاء جديد، ليس لأن قلبه أضيق من قلب مانويل، لكن لأنَّه كان من نسيج أبسط.

الآن اكتشف السر الذي لا يتذكره أحد، وهو أنَّه حتىٰ في الحب المثالي هناك شخص يحب بعمق أقل من صاحبه، يُمكن أن يكون هناك اثنان متساويين جودة وموهبة وجمالًا، لكن لن يكون هناك أبدًا اثنان يحبان بعضهما بالتساوي.

وهكذا جلس إيستبان بجانب الشمعة المتخافتة -ومفاصل أصابعه بين أسنانه- متعجبًا، لماذا تغير مانويل لهذه الدرجة، ولماذا فقد المعنىٰ من حياتهما؟!

في ليلة ما استوقف صبي مانويل في الشارع، وأعلمه أنَّ البيريكول تستدعيه فورًا، غيَّر مانويل طريقه وتوجَّه إلىٰ المسرح، دخل غرفة الممثلة، وانتظر واقفًا في استقامة وكآبة وبرود كان لكاميلا خدمة تريدها من مانويل، وظنَّت أن بعض التملق سيكون ضروريًّا في البداية، لكنَّها قليلًا ما توقفت عن تمشيط الباروكة الشقراء الموضوعة علىٰ الطاولة أمامها:

«أنت تكتب الرسائل للناس، أليس كذلك؟! أريدك أن تكتب لي رسالة أرجوك، أرجوك تفضل».

خطىٰ خطوتين للأمام.

«لم يزرني أيٌّ منكما، وهذا ليس إسبانيًّا منكما!».

تقصد حسن الأدب واللياقة.

«أيهما أنت إيستبان أم مانويل؟ لا يهم؛ كلاكما ليس ودودًا، لم يأتِ أحد منكما لرؤيتي، ها أنا أجلس كالخرقاء أحفظ الأدوار الغبية طيلة اليوم، ولا أحد يأتي ليراني، عدا الكثير من الباعة المتجولين؛ لأنني ممثلة أليس كذلك؟!».

لم يكن هذا عملًا فنيًّا، لكنَّه بالنسبة لمانويل كان معقدًا لدرجة لا يُعبر عنها بالكلام، نظر إليها من خلال ظلال شعره الطويل.

«أريد أن أكلفك بكتابة رسالة، رسالة سرية جدًّا، لكني الآن أرىٰ أنَّك لا تحبني، وطلبي منك كتابة الرسالة سيكون كما لو أنِّي

طلبت منك قراءتها علىٰ الملأ في جميع محلات النبيذ، ماذا تعني هذه النظرة مانويل؟ هل أنت صديقي؟!».

«نعم سيدتي!».

«اذهب بعيدًا، وأرسل إلي إيستبان، أنت لا تقول حتىٰ «نعم سيدتي»، كما يقولها صديق!».

صمت طويل . . . رفعت رأسها في الحال: «هل ما زلت هنا أيها البارد؟!».

«نعم سيدتي، يمكنك أن تثقي بي للقيام بأي شيء لك، يمكنك أن تثقي بي».

«إذا طلبت منك أن تكتب لي رسالة أو رسالتين، هل تقسم أنَّك لن تخبر أحدًا بما فيها، أو حتىٰ أنَّك كتبتها؟».

«نعم سيدتي!».

«بم ستقسم؟ بمريم العذراء؟».

«نعم سيدتي!».

«وبقلب قديس ليما روس؟».

«نعم سينيورا!».

«اسم علىٰ مسمىٰ يا مانويل، سيعتقد الجميع أنَّك غبي كالثور، أنا غاضبة جدًّا منك يا مانويل، أنت لست غبيًا، لا يبدو عليك أنَّك غبي، أرجوك لا تقل: «نعم سيدتي» مرة أخرىٰ، لا تكن غبيًا؛ وإلَّا سأرسل إلىٰ إيستبان، ما خطبك؟».

هنا ألقىٰ مانويل بنفسه علىٰ اللغة الإسبانية، وصرَّح بحماس لا داعي له: «أقسم بمريم العذراء، وقلب قديس ليما روس أن كل ما يتعلق بالرسالة سيكون سرًّا».

استفهمت البيريكول: «حتىٰ من إيستبان؟».

«حتىٰ من إيستبان».

«حسنًا هذا أفضل».

أشارت إليه بالجلوس إلىٰ طاولة، حيث كانت مواد الكتابة معدة مسبقًا في أثناء إملائها، كانت تدور في الغرفة عابسة الوجه تتمايل بخصرها وبوضع يديها علىٰ خصرها احتضنت بقوة الشال الذي علىٰ كتفيها.

«تقبل البيريكول كاميلا يد سعادتك، وتقول -لا-، خذ ورقة أخرىٰ، وابدأ مجددًا. السيدة ميكايلا فيلجاس الفنانة، تُقبل يد سعادتكم، وتقول: لكونها ضحية حسد وكذب الأصدقاء الذين سمح لهم سعادتك بالتواجد حوله، فهي لم تعد قادرة علىٰ احتمال غيرة وشكوك سعادتك، دائمًا ما قدرت خادمتكم صداقتكم، ولم ترتكب -بل لم يخطر ببالها- إهانة بحقها، لكنَّها لا تستطيع محاربة الافتراءات التي يصدقها سعادتكم بكل سهولة؛ لذلك تُرجع السيدة فيليجاس الفنانة المدعوة البيريكول هدايا سيادتكم كما أنَّها لو لم تُرسل؛ لأنَّه بدون ثقة سعادتكم لا تستطيع خادمتكم الاستمتاع بها».

ظلت كاميلا تتحرك في الغرفة لعدة دقائق مستغرقة في أفكارها وعلىٰ الفور وبدون النظر إلىٰ سكرتيرها أمرته: «خذ ورقة أخرىٰ».

«هل جننت؟ إيَّاك أن تفكر في إهداء ثور آخر إلي لقد أثار الأمر حربًا مرعبة، فلتحمك السماء يا مهري، مساء الجمعة نفس المكان، ونفس الموعد».

«ربما سأتأخر قليلًا؛ لأن الثعلب متيقظ جدًّا، هذا كل شيء».

نهض مانويل.

«هل تقسم أنَّك لم تقم بأي خطأ؟».

«نعم؛ أقسم».

«هذه نقودك».

أخذ مانويل النقود.

«سأحتاج أن تكتب لي مزيدًا من الرسائل من وقت لآخر، عادة ما يكتب عمي بيو رسائلي، لكنِّي لا أريده أن يعرف عن أمر هذه الرسائل عمت مساءً، اذهب ومعك الرب. اذهب ومعك الرب».

نزل مانويل الدرج ووقف بين الأشجار طويلًا لا يفكر، لا يتحرك، عرف إيستبان أنَّ أخاه مغتم بخصوص البيريكول، لكنه لم يشكَّ أبدًا أنَّه رآها من وقت لآخر، خلال الشهرين القادمين يهرع صبي صغير إليه، ويستفهم في عجلة هل هو مانويل

أو إيستبان، وعندما يُخبر أنه إيستبان يُردف الصبي قائلًا أنَّ مانويل مطلوب في المسرح.

اعتقد إيستبان أنَّ الاستدعاء هو لأعمال النسخ؛ ولذلك لم يكن مستعدًا أبدًا لزيارة لغرفتهما. في إحدىٰ الليالي كان الليل قد انتصف تقريبًا، استلقىٰ إيستبان علىٰ السرير يُحدِّق من تحت الغطاء في الشمعة التي بجانب أخيه الذي لا يزال يعمل، كان هناك طرق خفيف علىٰ الباب، وفتح مانويل الباب لتدخل سيدة متغطية بالكامل، وهي متوترة تحاول التقاط أنفاسها، ألقت بالوشاح الذي كان علىٰ وجهها للخلف، وقالت في عجلة: «بسرعة حبر وورقة. أنت مانويل أليس كذلك؟ عليك أن تكتب لي رسالة في الحال».

لبرهة وقع نظرها علىٰ العينين البارقتين اللتين كانتا ترمقها من طرف السرير النقال، ثم تمتمت قائلة: «أ أ . . . اعذرني، أعرف أن الوقت متأخر، كان لا بد لي الحضور الأمر ضروري.

اكتب هذا: «أنا البيريكول لست معتادة علىٰ الانتظار في موعد اللقاء»، هل أكملت كتابة ذلك؟ «أنت مجرد هندي أحمر، وهناك الكثير من مصارعي الثيران الذين هم أفضل منك حتىٰ هنا في ليما أنا نصف كاستيلانية ولا يوجد ممثلة أفضل مني في العالم لن تتسنىٰ لك الفرصة . . .» هل كتبت ذلك؟

«. . . لتجعلني أنتظر مرة أخرىٰ أيها الهندي الأحمر، وستكون الضحكة الأخيرة لي؛ لأنَّه حتىٰ بالنسبة لممثلة، فهي لا تهرم كما تهرم وكما يهرم مصارع الثيران . . .». بالنسبة لإيستبان

الذي كان في الظل كانت صورة كاميلا وهي تميل فوق يد أخيه وتهمس في أذنه الدليل القاطع علىٰ ولادة وُدٍّ لم يكن هو ليعرف عنه شيئًا مطلقًا، بدا وكأنَّه انكمش بسرعة ليصبح صغيرًا ومنبوذًا إلىٰ أبعد حدٍّ، نظر مرة أخرىٰ إلىٰ طاولة الحب، تلك الجنة التي صُدَّ عنها وأدار وجهه إلىٰ الحائط، خطفت كاميلا الورقة فور الانتهاء من الكتابة، وألقت بقطعة النقود علىٰ الطاولة، وفي زخم من الدانتيل الأسود والخرز الأحمر والهمسات المتحمسة غادرت الغرفة.

ابتعد مانويل عن الباب بشمعته، جلس ويديه علىٰ أذنيه ومرفقيه علىٰ ركبتيه، لقد كان يعبدها، تمتم إلىٰ نفسه قائلًا مرات ومرات: «إنَّه يعبدها»، جاعلًا الأمر يبدو كتعويذة يتعذر فهمها، أفرغ ذهنه من كل شيء عدا صوت أغنية، وكان هذا الفراغ الذي سمح له بالانتباه لمزاج إيستبان.

بدا وكأنَّه يسمع صوتًا يأتي من الظلال: «اذهب واتبعها مانويل! لا تبقَ هنا، ستكون سعيدًا، هناك مساحة لنا جميعًا في هذا العالم ...»، ثم صار الإدراك أكثر عمقًا وتخيل صورة في ذهنه لإيستبان يذهب بعيدًا، ويردد: «وداعًا»، وهو يبتعد، مليء بالرعب، بضوء الرعب رأىٰ أنَّ كل تعلق آخر في العالم هو مجرد سراب أو هذيان حمىٰ، حتىٰ لو كان بمادري ماريا ديل بيلار، أو بالبيريكول، لَمْ يفهم لِمَ تبرز مأساة إيستبان طالبة منه الاختيار بينه وبين البيريكول، لكنَّه استطاع فهم مأساة إيستبان كمأساة، وفي

الحال ضحىٰ بكل شيء من أجلها، إذا كان يمكننا القول: إنَّنا أبدًا نضحي بكل شيء عدا ما نعرف مسبقًا أنَّنا لن نمتلكه أو ما تخبرنا به الحكمة الخفية بأنَّ امتلاكه سيكون حزينًا ومتعبًا؛ ليتأكَّد أنَّه لم يكن هناك شيء يستند عليه إيستبان في الشكوىٰ، لم تكن الغيرة؛ لأنَّه في علاقاتهما السابقة لم يخطر بقلب أحدهما أنَّ ولاء الآخر له قد قلَّ، كان مجرد أنَّه في قلب كل واحد منهما مساحة باقية لتخيل تعلق مفصل، بينما لم يكن ذلك موجودًا في قلب الآخر، لم يستطع مانويل فهم هذا -وسنرىٰ ذلك- ونما فيه إحساس خافت بأنَّه متهم ظلمًا، لكنَّه فهم أن إيستبان كان يعاني، في خضم هذه الثورة، تلمس طرق التمسك بأخيه الذي بدا يتراجع مبتعدًا في الأفق، وفورًا وفي عزمة غير مترددة، أخرج البيريكول من قلبه. أطفأ الشمعة بنفخة، واستلقىٰ علىٰ السرير، كان يرتجف!

ثم قال بصوت عالٍ وتلقائية متكلفة: «حسنًا؛ هذه آخر رسالة أكتبها لهذه المرأة، يمكنها أن تجد قوادًا في مكان آخر، إذا أرسلت في طلبي، أو أرسلت إليَّ؛ أخبرها بذلك»، قالها بوضوح، لكنَّه كان بالكاد وصل إلىٰ «السهم الطائر في النهار»[(١)].

عندما أدرك أنَّ إيستبان قد نهض، وأضاء الشمعة سأله: «ما الخطب؟».

---

(١) في إشارة إلىٰ المقطع السادس من الترنيمة التسعين في سفر المزامير في العهد القديم من الإنجيل.

أجاب إيستبان في برود، وهو يربط حزامه: «سأذهب لأتمشىٰ . . .».

ثم بعد لحظة انفجر غاضبًا: «لا لست ملزمًا بقول ما قلته للتوِّ لي، لا يهمني إذا ما كنت تكتب لها الرسائل أم لا، ليس عليك أن تتغير من أجلي، لست معنيًّا بهذا الأمر!».

«ارجع إلىٰ السرير أيها الأحمق! أنت أحمق يا إيستبان ما الذي جعلك تعتقد أنِّي قلت ما قلت من أجلك؟! ألَا تصدق أنِّي أعني كلامي عندما قلت إنَّني قد أنهيت كل شيء معها؟ أتظنُّ أنَّني أريد كتابة المزيد من رسائلها القذرة، وتلقي المال علىٰ ذلك بهذه الطريقة؟».

«كل شيء علىٰ ما يرام، أنت تحبها ليس عليك أن تتغير من أجلي!».

«أحبها؟ أحبها؟ هل جننت إيستبان؟ كيف يمكنني حبها؟ ما هي فرصي؟ هل تظنُّ أنَّها كانت ستعطيني تلك الرسائل لأكتبها لو كان هناك فرصة؟ هل تظنُّ أنَّها ستدفع بقطعة النقود علىٰ الطاولة كل مرة . . . أنت مجنون إيستبان، هذا كل شيء!».

كان هناك صمت طويل، لم يكن إيستبان ليعود إلىٰ سريره، جلس بجانب الشمعة وسط الغرفة ينقر بيده حافة الطاولة، صرخ مانويل: «اذهب إلىٰ سريرك أيُّها الأحمق! رافعًا مرفقه تحت الغطاء».

كان يتكلم بلغتهم السرية أعطىٰ ألم قلبه الجديد إحساسًا أعمق بالحقيقة والواقع أنَّه مغضب!

«أنا بخير!». أجاب إيستبان وهو يتناول معطفه . . .

«لن أفعل، سأذهب لأتمشىٰ في الخارج».

«إنَّها الثانية صباحًا! إنَّها تمطر، لا يُمكنك الخروج لساعات هكذا، انظر إيستبان، أقسم لك إنَّه لم يبقَ شيء من ذلك أنا لا أحبها، أحببتها فعلًا لمدة، لكن الآن . . .».

كان إيستبان يقف في الظلام، والباب مفتوح، وبتلك النبرة المتوترة التي بها نصرح بأعظم الاعترافات في حياتنا: «أنا في طريقك!»، وانطلق.

قفز مانويل من سريره، بدا رأسه مليئًا بالضجيج بصوت يقول: «إنَّ إيستبان سيغادر إلىٰ الأبد ويتركك وحيدًا إلىٰ الأبد!».

«باسم الرب! باسم الرب! إيستبان عد إلىٰ هنا».

عاد إيستبان إلىٰ السرير، ولم يثر الأمر مرة أخرىٰ لعدة أسابيع، في الأمسية التي تلتها فورًا كان لدىٰ مانويل الفرصة ليعلن عن موقفه، وصل رسول من البيريكول وأخبره بحدة أن يُخبر الممثلة أنَّ مانويل لن يكتب لها المزيد من الرسائل.

في أمسية جرح مانويل ركبته بقطعة معدنية، لم يمرض أي من الأخوين لأكثر من يوم في حياتهما، والآن راقب مانويل في حيرة تامة رجله وهي تنتفخ، وشعر بأمواج الألم تعلو وتهبط في جسمه

جلس إيستبان بجانبه ينظر إلىٰ وجه أخيه محاولًا تخيل فظاعة الألم، وأخيرًا، وفي إحدىٰ الليالي تذكر مانويل أنَّ إحدىٰ اللافتات لحلاق في المدينة وصفت المالك بأنَّه خبير حلاقة وجراحة، ركض إيستبان في طرف المدينة لجلبه. طوق الباب بشدة، حالًا أطلت امرأة من النافذة وأخبرته أنَّ زوجها سيعود في الصباح.

خلال الساعات المخيفة التي تلت، أخبر كل منهما الآخر أنَّ كل شيء سيكون علىٰ ما يرام عندما يرىٰ الطبيب رجل مانويل. سيفعل شيئًا بخصوصها، وسيخرج مانويل إلىٰ المدينة في غضون يوم أو يومين -أو حتىٰ يوم واحد-، أو حتىٰ أقل من يوم.

وصل الحلاق ووصف عدة وصفات ومراهم. أُرشد إيستبان بوضع كمادات باردة علىٰ رجل أخيه كل ساعة. انصرف الحلاق وجلس الأخوان ينتظران أن يخف الألم. لكن أثناء تحديقهما في بعضهما في انتظار معجزة العلم ازداد الألم سوءًا. ساعة بعد ساعة اقترب إيستبان بقطعته التي تقطر واكتشفا أنَّ لحظة وضعها هي الأسوأ علىٰ الإطلاق. مع كل الجَلَد الذي في العالم لم يستطع مانويل منع نفسه من الصراخ والتلوي علىٰ السرير. أتىٰ الليل ومازال إيستبان ينتظر ويراقب ويعمل بهدوء. التاسعة، العاشرة، الحادية عشرة. والآن عندما اقترب موعد وضع الكمادات (دقت الساعة بشكل موسيقي من كل تلك الأبراج) يتوسل مانويل إيستبان ألَّا يفعل. يلجأ هو للخداع ويقول إنَّه أحس بها إحساسًا طفيفًا. لكن إيستبان -وقلبه ينضح ألمًا وشفتيه كخط من الحديد- كان يزيح

الغطاء ويربط الكمادات في مكانها بإحكام. شيئًا فشيئًا أصبح مانويل يهذي ومع العلاج انفجرت كل الأفكار التي لم يكن ليسمح بوجودها في حالته الطبيعية خارجة من فمه.

وأخيرًا: وفي الساعة الثانية -دون عقل بغصب وألم- ظل ينتفض، حتىٰ صار نصف جسمه خارج السرير، ورأسه يلامس الأرض، صاح مانويل: «عسىٰ الرب أن يرسل روحك إلىٰ أشد حر في جهنم، وأن يعذبك ألف شيطان إلىٰ الأبد يا إيستبان. لعن الله روحك يا إيستبان، سمعت؟!».

في البداية، خرج الهواء من جسمه، وخرج إيستبان إلىٰ الممر، واتكأ علىٰ الباب فاغرًا فاه، شاخصة عينيه.

لا يزال يسمع من الداخل: «نعم إيستبان؛ لعن الله روحك المتوحشة إلىٰ الأبد، سمعت؟! لأنك حلت بيني وبين ما كان حقًّا لي. كانت لي -سمعت- وما الحق الذي يخولك ...»، ثم يسترسل في وصف البيريكول.

تواصلت هذه الانفعالات كل ساعة. استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يدرك إيستبان أنَّ عقل أخيه لم يكن صافيًا. وبعد لحظات من الرعب -والتي خلالها كان لكونه مؤمنًا مخلصًا دور- يرجع إيستبان إلىٰ الغرفة ويواصل أعماله برأس مُنحَنٍ. وباقتراب الفجر أصبح أخوه أهدأ. (وأي أمراض الإنسان لا يبدو معها طلوع الفجر تخفيفًا؟) كان في تلك الفترات، قال مانويل بكل سكينة:

«ابن الرب! أشعر بتحسن إيستبان. لا بُدَّ أنَّ هذه الكمادات

كانت جيدة في الأخير. سترىٰ. سأكون علىٰ ما يرام غدًا. لم تنم لأيام. سترىٰ أنَّني لن أشكل لك المزيد من المتاعب إيستبان».

«لا تعبأ بي عندما أحاول منعك من وضع الكمادات، إيستبان».

صمت طويل. أخيرًا أخرج إيستبان صوتًا بالكاد يسمع:

«أظنُّ ... ألَا تعتقد أنَّه سيكون من الأفضل إذا أرسلنا في طلب البيريكول؟ أعني: باستطاعتها أن تأتي لدقائق لتراك ...».

«هي؟ ما زلت تفكر فيها؟ لم أكن لأرغب في وجودها هنا من أجل أي شيء. لا !».

لكن إيستبان لم يكن راضيًا بعد.

اجتر مزيدًا من العبارات من عمق وجوده:

«مانويل! ما زلت تشعر بأنَّني حلت بينك وبين البيريكول، ولا تذكر أنَّني أخبرتك أنَّ الأمر لا يضايقني. أقسم لك أنِّي سأكون سعيدًا إذا رحلت معها، أو أي شيء من هذا القبيل».

«لماذا تذكر هذا الآن يا إيستبان؟ أقول لك -باسم الرب نفسه- لا أفكر أبدًا في ذلك. هي لا شيء بالنسبة لي. متىٰ ستنسىٰ ذلك يا إيستبان؟ أقول لك: أنا سعيد بما هي عليه الأمور الآن. اسمع! لي الحق أن أغضب إذا أصررت أن تعود لهذا الموضوع».

«مانويل! لنِ أتكلم في هذا الموضوع ثانيةً، الأمر فقط أنَّه عند وضع الكمادات تغضب مني لوضعها و... وتغضب من أجل

البيريكول أيضًا وتتكلم عنها و. . .».

«اسمع! أنا لست مسؤولًا عمَّا أقول. وقتها تكون رجلي تؤلمني، أرأيت؟!».

«إذن؛ أنت لا تدعُ عليَّ بالنار لأنَّني . . . يبدو أنَّني حلت بينك وبين البيريكول؟!».

«أدعو عليك بـ. . .؟! ما الذي يجعلك تقول هذا؟ ستصبح مجنونًا يا إيستبان: أنت تتخيل هذه الأمور.

لم تحظ بأي قسط من النوم، إيستبان. لقد كنت لعنة عليك، وها أنت تفقد صحتك بسببي! لكن سترىٰ لن أسبب لك المزيد من المتاعب، كيف لي أن أدعو عليك بالنار يا إيستبان وأنت كل ما أملك؟ افهم، انظر عندما توضع الكمادات الباردة أفقد عقلي! انظر أنت تعلم ذلك لا تفكر في الأمر مرتين، حان الوقت لوضعها لن أتفوه بكلمة».

«لا مانويل سأتجاوز عن هذه المرة، لن تؤذيك إذا لم تضعها هذه المرة فقط، سأتجاوز عن هذه المرة».

«لابد أن أتعافىٰ يا إيستبان لا بُدَّ من النهوض من جديد، ضعها لكن دقيقة، أعطني الصليب، اقسم بدم وجسد المسيح أنَّني إذا قلت شيئًا سيئًا لإيستبان فأنا لا أعنيه، وهي فقط الكلمات الغبية أثناء الحلم بسبب الألم في رجلي، أسأل الرب أن يعافيني قريبًا . . . آمين . . . أرجعه مكانه الآن، أنا مستعدٌّ».

«اسمع يا مانويل لن يؤثر إذا تغاضينا عن هذه المرة، سيكون ذلك جيدًا بالنسبة لك بالتأكيد، لكي لا تهيج كل شيء في آنٍ واحد، فقط هذه المرة».

«لا؛ عليَّ أن أتعافىٰ، الطبيب قال لا بُدَّ من وضعها، لن أتفوه بكلمة يا إيستبان».

وبدأ كل شيء مرة أخرىٰ خلال الليلة الثانية، بدأت بغي تسكن في الغرفة المجاورة تدق الحائط غاضبة من هكذا لغة، وخرج الراهب في الغرفة المجاورة من الجانب الآخر من الممر، ووقف ليدق علىٰ الباب، كان الطابق كله يجتمع أمام الغرفة في سخط، صعد مالك النزل السلم، ووعد ضيوفه بصوت عالٍ أنَّه سيطرد الأخوين في الصباح، كان إيستبان يخرج ممسكًا بشمعة إلىٰ الممر، ويسمح لهم بتفريغ غضبهم عليه لأي مدة شاؤوا، لكن بعد ذلك صار يضع يده علىٰ فم أخيه بإحكام خلال الفترات الأشد ألمًا، زاد هذا الأمر من غضب مانويل، وصار يهذي طوال الليل.

في الليلة الثالثة، أرسل إيستبان في طلب المراقب، وفي خضم تلك الظلال الكبيرة تسلم مانويل السر المقدس ومات!

بعد ذلك رفض إيستبان الاقتراب من المبنىٰ، بدأ يمشي لفترات طويلة، لكنَّه مع غياب وعيه تدريجيًّا، كان يظل قابعًا يحدق في الناس علىٰ بُعد شارعين من مرقد أخيه، لم تنجح محاولات مالك النزل في التأثير عليه، وبعد تذكر أنَّهما تربيا في دير سانتا ماريا دي لاس روساس أرسل في طلب الآبيس، ببساطة ومنطقية

قامت بكل ما يجب فعله في الأخير، مشت إلىٰ نهاية الشارع، وتكلمت مع إيستبان، راقبها وهي تدنو منه بنظرة ممزوجة بالشوق وعدم الثقة، لكن عندما وقفت بجانبه استدار وأشاح بوجهه.

«أنا أريد مساعدتك، ألن تأتي لترىٰ أخاك؟ ألن تأتي لتساعدني؟».

«لا».

«لن تساعدني؟».

صمت طويل . . . فجأة وهي واقفة هناك عاجزة تمامًا؛ لمع في ذهنها حادثة قبل عدة سنوات، كان الأخوان في الخامسة عشرة يجلسان علىٰ ركبتيها بينما كانت تحكي لهما قصة الصلب، كانت عيونهما الواسعة والغامضة مسلطة علىٰ شفتيها، وفجأة صرخ مانويل بأعلىٰ صوته: «لو كنا أنا وإيستبان هناك لمنعنا ذلك».

«حسنًا إذا لم ترد المساعدة، فأيهما أنت؟!».

قال إيستبان: «مانويل».

«ألن تأتي وتجلس معي قليلًا في الأعلىٰ؟».

بعد صمت طويل: «لا».

«لكن عزيزي مانويل ألا تتذكر أنكما كنتما تفعلان الكثير من أجلي؟ كنتما مستعدين لتجوبا المدينة كلها من أجل مهمة صغيرة، وعندما كنت مريضة أصريتما علىٰ الطباخ أن يسمح لكما بإحضار الشوربة لي؟».

امرأة أخرىٰ كانت ستقول: «ألا تتذكر كم فعلتُ من أجلك؟».

«نعم».

«أنا أيضًا يا مانويل خسرت - أنا أيضًا ... مرة. نعلم أنَّ الرب قد أخذهم إلىٰ كنفه ...».

لكن هذا لم يُجدِ نفعًا.

استدار إيستبان ببرود، وانصرف عنها، عندما ابتعد حوالي عشرين خطوة توقف ونظر إلىٰ أحد الشوارع الجانبية ككلب متردد، يريد أن يذهب بعيدًا، لكنَّه يخاف أن يغضب سيده.

كان هذا كل ما استطاعوا الحصول عليه منه، وعندما مرَّ الموكب المهيب في المدينة، وعرضه للجماجم المتكدسة وعليها أغطية الرأس والأقنعة، وشموعه في وضح النهار، ومزاميره المرعبة، تابع إيستبان الموكب من الطرق الموازية يسرق اللمحات كحيوان مفترس.

كانت ليما كلها مهتمة بهذا الانفصال بين الأخوين. تهامست ربات البيوت بالأمر في تعاطف أثناء نفضهن السجاد من علىٰ الشرفات، هز الرجال رؤوسهم -بالإشارة إلىٰ القصة- في محلات النبيذ ودخنوا في صمت لبرهة من الزمن قصَّ المسافرون الذين يجوبون الأجزاء الداخلية للبلاد رؤيتهم لإيستبان وهو يهيم علىٰ وجهه، وعيناه كالفحم علىٰ ضفاف الأنهر الجافة، أو كالفحم

المتناثر في أرجاء الآثار العظيمة للعرق القديم، مر به راعٍ لحيوانات اللاما واقفًا تحت النجوم على تلة -نائمًا أو نعسًا- مبللًا بالندى. عثر عليه بعض الصيادين وهو يسبح بعيدًا عن الشاطئ.

من وقت لآخر كان يجد عملًا، صار راعيًا أو مزارعًا، لكن بعد أشهر قليلة يختفي ويتنقل من محافظة إلى أخرى، لكنَّه كان دائمًا ما يعود إلى ليما. في يوم من الأيام ظهر أمام غرفة تغيير الملابس التابعة للبيريكول بدا وكأنَّه سيتكلم، حدق فيها باهتمام، ثم اختفى، في يوم من الأيام هرعت إحدى الأخوات إلى مكتب مادري ماريا ديل بيلار تحمل نبأ أن إيستبان (الذي يدعوه العالم مانويل) يحوم أمام باب الدير. هرعت الآبيس إلى الشارع كانت تُسائل نفسها لأشهر عديدة ما هي الخطة الإستراتيجية الكفيلة للتصالح مع الولد نصف المجنون؛ ليرجع ويعيش بينهم ثانية، استجمعت هدوءها وجديتها بقدر استطاعتها، ومع ظهورها على باب الشارع تمتمت قائلة: «صديقي»، وهي تنظر إليه، نظر إليها بنفس نظرة الشوق وعدم الثقة التي رمقها بها سابقًا، ووقف مرتعشًا، همست مرة أخرى «صديقي»، وتحركت خطوة نحوه، استدار إيستبان فجأة، وانطلق راكضًا، واختفى. هرعت ماريا ديل بيلار وهي تترنح عائدة إلى مكتبها، وجثت على ركبتيها واستعملت غاضبة: «لقد صليت من أجل الحكمة، ولم تُعْطِني منها شيئًا، لم تخترنِ لأحوز على أقل قدر من الجلال. لست إلَّا ماسحة للأراضي»، لكن أثناء أدائها للكفارة التي ألزمت نفسها بها لتكفر

عن هذه الوقاحة أتت إليها فكرة أن ترسل إلىٰ الكابتن ألفارادو. بعد مرور ثلاثة أسابيع تكلمت معه لعشر دقائق، وفي اليوم التالي استعد للرحيل إلىٰ كوسكو، حيث يقال: أن إيستبان كان يقوم ببعض أعمال النسخ للجامعة، خلال تلك السنوات كان ذلك الرمز الغريب والنبيل -الكابتن الفارادو الرحالة- عركته جميع الأجواء، وقف في الميدان ورجلاه متباعدتان وكأنما غرستا في دفة توجيه السفينة، كانت عيونه غريبة -ليست معتادة علىٰ المدىٰ القصير- معتادة جدًّا علىٰ اقتناص ظهور كوكب بين سحابة وأخرىٰ وملامح اليابسة أثناء نزول المطر. شرح تحفظه عن الكلام عن طريق رحلاته، لكن الماركيزا دي مونتيمايور ألقت الضوء علىٰ هذا الأمر من جانب آخر، كتبت لابنتها: «سيُحضر الكابتن ألفارادو هذه الرسالة بنفسه. عرفية علىٰ بعض الجغرافيين لديك، يا كنزي، بالرغم من أن ذلك قد يزعجهم؛ لأنَّه جوهرة الصدق، لن يروا أحدًا سافر بقدر ما سافر هو. البارحة وصف لي إحدىٰ رحلاته، تخيلته وهو يدفع مقدمة سفينته خلال بحر مليء بالحشائش محركًا غيمة من السمك، كما تفعل الجنادب في يونيو، أو تخيلته يبحر بين جزر من الثلج. آه لقد ذهب إلىٰ الصين وأعالي الأنهار في أفريقيا، لكنَّه ليس مجرد مغامر، فلا يبدو عليه الاعتزاز باكتشاف الأماكن الجديدة، ولا هو مجرد تاجر. سألته يومًا بالتحديد لماذا تعيش هكذا؟ لكنَّه تحاشىٰ سؤالي، عرفت من عاملة الغسيل سبب تجواله: صغيرتي كان لديه طفلة، ابنتي كان لديه بنت، كانت كبيرة

بما يكفي لتحضر له طعام العطلة وتقوم ببعض الخياطة له. في تلك الأيام كان يبحر بين المكسيك والبيرو فقط، ولوحت له مئات المرات بالترحيب أو الوداع، لا نعرف ما إذا كانت أجمل وأذكىٰ من الآلاف اللواتي كن حوله، لكنَّها كانت ملكه أظنُّ أنَّكِ تعتقدين أنَّه من غير اللائق أن يطوف جذع الرجل الصلب كالبلوط تائهًا كرجل أعمىٰ يدور حول بيت فارغ فقط بسبب طفلة وقحة قد أخذت منه. لا، لا، أنت لا تستطيعين فهم ذلك -غاليتي- لكنِّي أفهم ويشحب وجهي لذلك. جلس البارحة معي وتحدث عنها، وضع يده علىٰ خده وهو ينظر إلي النار وقال: «أحيانًا يخيل إلي أنَّها في رحلة وستعود مجددًا، يخيل إلي أنها في إنجلترا، ستضحكين علي لكن أظن أنه يجوب نصفي الكرة الأرضية ليقضي الوقت ما بين الحاضر وشيخوخته».

دائمًا ما أكنَّ الأخوان احترامًا عظيمًا لكابتن ألفارادو، عملوا معًا لفترة قصيرة وشكل صمت ثلاثتهم قليلًا من المغزىٰ في عالم ملؤوه التفاخر والأعذار والتشدق، والآن عندما قدم الرحالة العظيم إلىٰ المطبخ، حيث كان يأكل إيستبان سحب الصبي كرسيه إلىٰ الظل أكثر، لكنه من بعيد كان سعيدًا. لم يُظهر الكابتن أي إشارة لمعرفة أو حتىٰ رؤية إيستبان حتىٰ فرغ من وجبته. انتهىٰ إيستبان من وجبته قبل ذلك يكثر لكنه مع رغبته في ألا يتكلم أحد معه انتظر حتىٰ يغادر الكابتن الكهف. في النهاية تقدم الكابتن نحوه، وقال: «أنت إيستبان أم مانويل لقد ساعدتني مرة في تفريغ سفينة، أنا كابتن ألفارادو؟!».

قال إيستبان: «نعم، كيف حالك»، تفوه إيستبان بكلام!

«أبحث عن رجال أقوياء ليرافقونني في رحلتي القادمة».

صمت.

«هل ترغب بذلك؟ صمت أطول. إنجلترا وروسيا، عمل شاق أجور جيدة . . . بعيدًا جدًّا عن ليما . . . حسنًا؟».

يبدو أن إيستبان لم يكن يستمع، جلس وعينيه تنظر إلىٰ الطاولة في الأخير، رفع الكابتن صوته، وكأنه يخاطب أصمًا.

«قلت: هل تريد أن تذهب مع في رحلتي القادمة؟».

أجاب إيستبان فجأة: «نعم؛ سأذهب».

«حسنًا هذا جيد أريد أخوك أيضًا بالطبع».

«لا».

«لماذا؟ ما الخطب؟ ألن يرغب في الذهاب معنا؟».

همهم إيستبان بشيء ونظر بعيدًا ثم أثناء قيامه قال: «عليَّ أن أذهب الآن، عليَّ أن أقابل أحدًا بخصوص شأن ما».

«دعني أرىٰ أخاك بنفسي أين هو؟».

قال إيستبان: «ميت».

«أوه لم أعلم ذلك لم أعلم أنا آسف».

قال إيستبان: «نعم؛ علي أن أذهب».

«همم؛ أي منهما أنت؟ ما اسمك؟».

«إيستبان».

«متىٰ توفي مانويل؟».

«أوه . . . قبل . . . قبل بضع أسابيع، جرح ركبته بشيء، و. . . بضع أسابيع مضت».

جعل كلاهما ينظر إلىٰ الأرض: «كم عمرك يا إيستبان؟».

«اثنان وعشرون».

«حسنًا، إذًا حُسمت الأمور، ستأتي معي؟».

«نعم».

«قد لا تكون معتادًا علىٰ البرد».

«بلىٰ، أنا معتاد عليه، علي أن أذهب الآن، علي أن أذهب للمدينة لأقابل شخصًا بخصوص شيء ما».

«حسنًا يا إيستبان، ارجع هنا للعشاء، وسنتكلم عن تفاصيل الرحلة، ارجع وتناول معي بعض النبيذ ما رأيك؟ هل ستفعل؟».

«نعم سأفعل».

«اذهب ومعك الرب».

«اذهب ومعك الرب».

تناولا العشاء معًا وتم الترتيب علىٰ أنهما سيبدآن بالذهاب لليما صباح اليوم التالي.

جعله الكابتن يثمل، في البداية صبًّا وشربا، ثم صبًّا وشربا، في صمت بدأ الكابتن بالحديث عن السفن ومساراتها، سأل إيستبان عن التعامل مع النجوم، وعن النجوم المرشدة، ثم بدأ إيستبان بالتحدث عن أشياء أخرىٰ ويتكلم بصوت عالٍ: «علىٰ متن السفينة، عليك أن تبقيني مشغولًا طيلة الوقت. سأفعل كل شيء، كل شيء، سأتسلق للأعلىٰ، وأربط الحبال، وسأراقب طيلة الليل؛ لأنَّني -كما تعرف- لا أستطيع النوم جيدًا.

«كابتن ألفارادو! علىٰ متن السفينة عليك أن تتظاهر بأنَّك لا تعرفني، وتظاهر بأنَّك تكرهني بشدة، ولذلك ستكلفني بعمل شيء دائمًا، لم أعد أستطيع الجلوس ساكنًا علىٰ طاولة والكتابة، ولا تخبر الرجال الآخرين عني هذا كل ...».

«سمعت أنك ذهبت إلىٰ منزل يحترق وأخرجت أحدًا».

«نعم؛ لم أصب بحريق أو شيء كهذا تعرف».

بكىٰ إيستبان وهو يميل علىٰ الطاولة: «لا يُسمح لك بقتل نفسك: تعرف لا يُسمح لك، الجميع يعرف ذلك، لكن إذا قفزت إلىٰ منزل يحترق لتنقذ أحدهم لا يعد هذا قتلًا لنفسك، عليك فقط ألا ترمي بنفسك في طريق الثور عمدًا، هل لاحظت أن الحيوانات لا تقتل نفسها حتىٰ عندما تكون متأكدة أنها ستخسر؟ لم يحدث أبدًا أن ألقت بنفسها في النهر أو شيء من هذا القبيل عندما تكون متأكدة من خسارتها.

يقول البعض إن الأحصنة تجري نحو النار هل هذا صحيح؟».

«لا أعتقد أنَّ هذا صحيح».

«لا أعتقد أن هذا صحيح كان لدينا مرة كلب ... حسنًا، عليَّ ألا أفكر في ذلك، كابتن ألفارادو هل تعرف مادري ماريا ديل بيلار؟».

«نعم».

«أريد أن أعطيها هدية قبل أن أرحل. كابتن ألفارادو أريدك أن تعطيني أجوري كلها قبل أن أبدأ. لن أحتاج إلىٰ المال في أي مكان، وأريد أن أشتري لها هدية الآن، ليست الهدية مني وحدي لقد كانت ... كانت، هنا تمنىٰ إيستبان أن ينطق باسم أخيه، لكنَّه لم يستطع في المقابل تابع بصوت أخفض لقد فقدت شخصًا عزيزًا جدًّا، قالت لي ذلك مرة. لا أعرف من كان وأريد أن أعطيها هدية فالنساء لا تستطعن تحمل هذه الخسائر كما نستطيع نحن الرجال».

وعده الكابتن بأنهما سيختاران هدية في الصباح. تكلم إيستبان عن ذلك مطولًا، في النهاية رآه الكابتن وهو ينزلق إلىٰ أسفل الطاولة بينما نهض هو وخرج إلىٰ الميدان أمام النزل. نظر إلىٰ خط الإنديز وسيول النجوم وهي مزدحمة في عرض السماء، وكان هناك خيال في الهواء يبتسم له، الخيال صاحب الصوت الفضي الذي قال للمرة الألف: «لا تغب طويلًا، لكنِّي سأكون بنتًا

كبيرة عندما تقود». بعدها عاد إلىٰ الداخل وحمل إيستبان إلىٰ غرفته، وجلس ينظر إليه طويلًا.

في صباح اليوم التالي، كان ينتظر أسفل الدرج حينما ظهر إيستبان، قال الكابتن: «سنبدأ متىٰ ما كنتَ مستعدًا، عاد البريق الغامض لعيني الفتىٰ. بادر الفتىٰ بقول: «لا، لن أذهب، لن آتي معك!».

«أبي! إيستبان! لكنَّك وعدتني بأنَّك ستأتي!».

«هذا مستحيل، لا أستطيع أن آتي معك». وصعد الدرج مرة أخرىٰ.

«عد إلىٰ هنا للحظة إيستبان، للحظة فقط».

«لا أستطيع أن آتي معك، لا أستطيع مغادرة بيرو».

«أريد أن أخبرك شيئًا، عاد إيستبان إلىٰ مؤخر الدرج».

سأل الكابتن بصوت منخفض: «ماذا عن تلك الهدية لمادري ماريا ديل بيلار؟».

صمت إيستبان وهو ينظر إلىٰ الجبال: «لن تحرمها من تلك الهدية أليس كذلك؟ أنت تعرف أنها قد تعني لها الكثير!».

تمتم إيستبان قائلًا: «حسنًا»، كما لو تأثر جدًّا.

«نعم؛ إضافة إلىٰ أنَّ المحيط أفضل من بيرو . . . أنت تعرف ليما وكوسكو، والطريق بينهما . . . ليس هناك المزيد لتعرفه

عنها . . . أرأيت الذي تريده؛ هو المحيط، إضافة إلىٰ أنَّه علىٰ السفينة عليك القيام بشيء كل دقيقة، سأحرص علىٰ ذلك، اذهب وأحضر أغراضك وسنبدأ . . .».

حاول إيستبان أن يتخذ قرارًا كان مانويل هو دومًا الذي يتخذ القرارات، وحتىٰ مانويل لم يُجبر يومًا أن يتخذ قرارًا صعبًا كهذا.

انتظره الكابتن في الخارج لمدة طويلة لدرجة أنه صعد إلىٰ منتصف الدرج واسترق السمع في البداية كان هناك صمت ثم سلسلة ضوضاء كان خياله قادرًا علىٰ تمييزها فورًا، كان إيستبان قد حك الجص من علىٰ الدعامة وكان يحاول وضع الحبل حولها، ربما علي أن أتركه وحده، ربما هذا هو الشيء الوحيد الذي يستطيع القيام به ثم مع سماع صوت آخر رمىٰ بنفسه علىٰ الباب وسقط داخل الغرفة وأمسك بالفتىٰ، وصرخ إيستبان: «اذهب بعيدًا، دعني، لا تدخل الآن».

وقع إيستبان ووجهه يجابه الأرض، أخذ يصيح: «أنا وحيد . . .! أنا وحيد . . .! أنا وحيد . . .!».

وقف الكابتن فوقه ووجهه الخالي من التعبير والمليء بالأخاديد والشاحب من الألم، كانت ساعات من حياته القديمة عاشها مجددًا. كان المتحدث الأكثر غرابة في العالم إذا استثنينا حِكَم البحر، لكن هناك أوقاتًا تتطلب شجاعة كبيرة لتقول البدهي. لم يكن متأكدًا ما إذا كان الشخص الذي علىٰ الأرض يسمع أم لا،

لكنه قال: «نفعل ما نستطيع فعله، نقاوم يا إيستبان بقدر ما نستطيع، لن يدوم هذا طويلًا، الوقت سيمر وستتفاجأ كيف يمر سريعًا».

بدأوا بالتحرك نحو ليما، وعندما وصلوا للجسر سان لويس راي نزل الكابتن إلىٰ النهر ليشرف علىٰ مرور البضائع لكن إيستبان عبر الجسر، وسقط معه.

الفصل الرابع

العم بيو

في واحدة من رسائلها (التاسعة والعشرون) تحاول الماركييزا دي مونتيمايور وصف الانطباع الذي خلقه العم بيو الذي سمته هارليكوننا المسن[1] عليها. تخبر ابنتها في الرسالة:

«ظللت جالسة طوال الصباح علىٰ الشرفة الخضراء أصنع لك زوج نعل -يا روحي- وبما أنَّ الخيط الذهبي لم يستحوذ علىٰ انتباهي كنت قادرة علىٰ تتبع نشاط زمرة من النمل علىٰ الحائط بجانبي، في مكان ما خلف الفاصل يعملون بدأب علىٰ تدمير بيتي. كل ثلاث دقائق يظهر عامل صغير بين لوحين ويضع وجبة صغيرة من الخشب علىٰ الأرضية، ثم يلوح لي بقرونه ويعود مسرعًا إلىٰ ممره السري، في هذا الوقت كان إخوانه وأخواته يتحركون ذهابًا وإيابًا علىٰ طريق سريع يتوقفون ليرسل كل منهما رسالة إلىٰ رأس الآخر، وإذا كانت الرسائل المحمولة في قمة الأهمية يرفضون بغضب إرسال أو تلقي رسائل، وفي لحظتها تذكرت فورًا العم بيو

---

(١) الهارلكوين: المهرج الصامت.

لماذا؟ من غيره رأيت عليه نفس الحركات التي يأسر بها راهبًا يمر في الطريق أو واحدًا من خدم البلاط، ثم يهمس وشفتاه علىٰ أذن الضحية؟

وأنا متأكدة أنَّني -قبل الظهيرة- رأيته يهرول لواحدة من مهامه الغامضة تلك، وكون أنَّني أكثر النساء سكوتًا وأسخفهن، أرسلت بيبيتا لتحضر لي قطعة نوغا، وضعتها علىٰ طريق النمل السريع، وبطريقة مشابهة أرسلت رسالة إلىٰ مقهىٰ بيزاروا أطلب منهم أن يرسلو إلىٰ العم بيو إذا حضر قبل الغروب، سأعطيه شوكة السلطة المعوجة القديمة تلك التي بها حجر التركواز وسيحضر لي نسخة من الأهازيج الجديدة التي يغنيها الجميع والتي عن دي - كيو - إي - أول - في - إس. طفلتي ستحصلين علىٰ أفضل شيء، وستحصلين عليه أولًا».

وفي الرسالة التالية: «عزيزتي! العم بيو هو أروع إنسان في العالم باستثناء زوجك. إنه ثاني أروع إنسان في العالم. حوارته ساحرة. كنت سأجعله سكرتيري، لولا أنَّه مغمور، كان سيكتب لي جميع رسائلي، وستنشأ أجيال تقول إنَّني كنت خفيفة الظل، لكن للأسف نهشت عثة المرض والصحبة السيئة جسده؛ **لذلك**: عليَّ أن أتركه لعالمه السفلي، هو لا يشبه النملة فقط، بل هو كحزمة بطاقات طُمرت تحت الأرض، وأشكُّ أنَّ المحيط الهادئ بأكمله قادر علىٰ جعله نظيفًا وعطرًا مرة أخرىٰ، لكن يا لها من إسبانية مقدسة، تلك التي يتكلمها، ويا لجمال الأشياء التي يقولها بها! هذا ما يحصل عليه الشخص عندما يكون بجانب المسرح ولا يسمع

شيئًا غير حوار كالديرون[1]، للأسف ما خطب هذا العالم -يا روحي- وهو يعامل مخلوقًا كهذا بهذا السوء عيناه حزينتين كبقرة فارقت عجلها العاشر.

لا بُدَّ أن تعرف أنَّ العم بيو هذا كان خادم كاميلا البيريكول كان أيضًا أستاذها الغنائي ومديرها الفني ومصفف شعرها ومدلكها وملقن أدوارها وخادمها وصرافها، وكما أضافت الإشاعة أبوها. من أمثلة ذلك أنَّه علمها أدوارها. كان هناك همس في المدينة أنَّ كاميلا تستطيع القراءة والكتابة، لم تكن لتلك الإطراءات أساس من الصحة، فقد كان العم بيو هو من يكتب ويقرأ لها. في أوج الموسم تطرح الشركة مسرحيتين أو ثلاث في الأسبوع، وبما أنَّ كل واحدة منها كان فيها دور طويل ومنمق للبيريكول لم تكن مهمة الحفظ وحدها شيئًا تافهًا. انتقلت بيرو في خمسين عامًا من بلد استطلاع إلىٰ بلد نهضة. كان اهتمامها بالموسيقىٰ والمسرح عظيمًا. احتفلت ليما بأعيادها بسماع قداس لتوماس لويس دي فيكتوريا[2] في الصباح، وشعر كالديرون البراق في المساء. كان ما نقل صحيحًا أنَّ أهل ليما قد مُنحوا موهبة تحويل الأغاني المبتذلة إلىٰ أجود مقطوعات الكوميديا، وبعض المؤثرات الحزينة إلىٰ أكثر مقطوعات الموسيقىٰ ضبطًا، وأقله أنَّهم لم يستسلموا لملل التبجيل الذي في غير مكانه.

---

(١) شاعر وكاتب ودرامي أسباني عاش في العصر الذهبي الأسباني، ولُد (عام: ١٦٠٠م)، وتُوفي في (عام: ١٦٨١م)، وتعتبر وفاته نهاية العصر الذهبي الأسباني.

(٢) أحد أشهر مؤلفي الموسيقىٰ الأسبان في القرن السادس عشر.

فلو أبغضوا كوميديا الأبطال، فلن يترددوا في البقاء في بيوتهم، ولو كانوا صمًّا لا يسمعون الأنغام لم يكن ذلك ليمنعهم من حضور القداس المبكر. عندما عاد كبير الأساقفة من رحلة قصيرة إلىٰ إسبانيا ظلت كل ليما تسأل: «ماذا أحضر معه؟»، انتشرت الأنباء أخيرًا أنه عاد بمجلدات من الصلوات والابتهالات والموشحات لبالسترينا[1]، وموراليس[2]، وفيتوريا بجانب خمس وثلاثين مسرحية لتيرسود مولينا[3]، ورويز دي ألا ركون[4]، وموريتو[5]. أقيم احتفال أهلي علىٰ شرف تلك المقطوعات الأدبية، أُغرقت مدرسة الكورال وغرفة الكوميديا الخضراء بالهدايا من الخضراوات والقمح. كان الجميع مهتمًا برعاية وتغذية من سيترجم لهم هذا الجمال. كان هذا هو المسرح الذي صنعت فيه البيريكول شهرتها. كان مخزون المسرح غنيًّا جدًّا، وكان مُلقن الأدوار حاذقًا، لدرجة أن القليل من المسرحيات عرضت أكثر من أربع مرات في الموسم. كان لدىٰ المدير باكورة الدراما الإسبانية في القرن السابع عشر؛ ليختار منها ومن ضمنها الكثير ممَّا فقدنا الآن.

---

(١) أحد مؤلفي الموسيقىٰ الإيطاليين في عصر النهضة، ألف الموسيقىٰ الدينية، واعتبرت مقطوعاته رمزًا للمدرسة الرومانية للتأليف الموسيقي.

(٢) أبرز مؤلفي الموسيقىٰ قبل فيكتوريا.

(٣) كاتب مسرحي ينتمي إلىٰ العصر الباروكي، وشاعر وراهب كاثوليكي.

(٤) أحد كتاب العصر الذهبي الإسباني.

(٥) راهب إسباني كاثوليكي ودرامي وكاتب مسرحيات.

ظهرت البيريكول في مئات المسرحيات للوبي دي فيفا وحده[1]. كان هناك العديد من الممثلات المحببات في ليما، لكن لم يوجد أفضل من البيريكول! كان المواطنون بعيدين جدًّا عن مسارح إسبانيا ليعلموا أنَّها كانت الأفضل في العالم الإسباني كله، ظلُّوا يتنهدون شوقًا للمحة لنجوم مدريد التي لم يروها، والتي أضفوا عليها بعض الامتيازات الغريبة. كان هناك شخص واحد فقط يعلم أن البيريكول كانت فنانة رائعة، ذلك الشخص كان معلمها العم بيو. ينحدر العم بيو -بطريقة غير شرعية- من بيت كاستيلاني جيد. في العاشرة من عمره هرب إلىٰ مدريد من عقار أبيه وطورد، لكن لم تكن مطاردة حثيثة. عاش بعد ذلك علىٰ خفة ظله.

كان يمتلك ست صفات للمغامرة: (ذاكرة قوية للأسماء والوجوه، وقدرة علىٰ تغيير اسمه ووجهه، موهبة اللسان، وقدرة اختراع لا تنضب، والسرية، وموهبة الحوار مع الغرباء)، وذلك التحرر من مراقبة الضمير الذي ينبع من ازدرائه للأغنياء الغافيين الذين كان يفترسهم. من عمر العاشرة إلىٰ الخامسة عشرة كان يوزع فواتير للتجار ويرعىٰ الأحصنة، وقام بمهام سرية. من الخامسة عشرة إلىٰ العشرين درب الدببة والثعابين لعروض السيرك الجوالة، وطبخ وأعد المشروبات، كان يحوم أمام الحانات الراقية ويهمس

---

(١) لوبي دي فيفا: شاعر وكاتب مسرحي إسباني من رموز العصر الذهبي.

بخطط في آذان المسافرين، أحيانًا يهمس بخطط ليست أكثر ريبة من أن بيت أحد النبلاء قد صُفي لدرجة أنَّهم سيبيعون الصحون، وبالتالي يمكنه أن يحصل علىٰ عربون صائغ الفضة. كان لديه اتصال بجميع المسارح في المدينة ويُمكنه أن يثني علىٰ عشرة. نشر الافتراءات علىٰ الكثير من الافتراءات. كان يبيع الإشاعات عن الجثث وأسعار الأراضي. من العشرين إلىٰ الثلاثين أصبحت خدماته معروفة في دوائر راقية. أرسل من قبل الحكومة ليُحرض بعض المتمردين من أجل أن تأتي الحكومة وتسحقهم دون ندم.

كان حسن تقديره للأمور استثنائيًا لدرجة أن الحزب الفرنسي استعمله مع علمهم بأن الحزب النمساوي استعمله أيضًا، كان لديه مقابلات شخصية مطولة مع أميرة أورسان، لكنه كان يأتي ويخرج من الدرج الخلفي. خلال تلك الحقبة لم يكن مضطرًا ليُحَضِّر مشروبات الرجال ليحصد محاصيل الفتن. لم يكن ليفعل شيئًا أكثر من أسبوعين، حتىٰ ولو بدا أنَّ عوائدًا أكبر ستتبع. كان يمكنه أن يصير مديرًا للسيرك، أو مخرجًا مسرحيًا، أو تاجرًا للتحف، أو موردًا للحرير الإيطالي، أو تاجر تموين للجيش، أو مضاربًا في البيوت أو المزارع، أو تاجر لهوٍ وترفيه، لكنَّه يبدو أنَّه كُتب في شخصيته بالصدفة أو عن طريق إعجاب مبكر بطفولته تردد في أن يمتلك شيئًا، أو أن يُقيد بشيء، أو أن يدخل في التزام طويل.

كانت هذه الخصلة التي منعته من السرقة مثلًا. سرق عدة مرات، لكن المكاسب لم تكن كافية لتعادل خطر الحبس، كان

لديه من البراعة ما يكفي ليهرب من مكان ولو كان فيه شرطة العالم، لكن لم يكن ليحميه شيء من وشاية أعدائه، وسيرًا علىٰ نفس النسق حُطَّ من قدره فكلف بإجراء تحقيقات لمحاكم التفتيش، لكن عندما رأىٰ العديد من ضحاياه الذين تم اقتيادهم أمامه وهم يرتدون رداء الرهبان عندها أحس أنَّه ربما ورط نفسه مع مؤسسة لا يمكن التنبؤ بأفعالها.

ومع اقترابه من العشرين أدرك العم بيو بوضوح أن حياته أصبح لها ثلاثة أهداف، في البداية كان هناك تلك الحوجة للاستقلالية وتمثلت تلك الحوجة بطريقة غريبة، أفضل ما تسمىٰ: الرغبة في التجديد والسرية والعلم بكل شيء. كان مستعدًا أن يتنازل عن ميزات الحياة العامة مقابل أن يكون في السر يستطيع أن يُحس أنَّه ينظر للناس من الأعلىٰ ليعرف عنهم أكثر ممَّا يعرفون عن أنفسهم، ومقابل معرفة كانت -غالبًا- تترجم لأجيال وجعلته كوكيل لشؤون الدولة والناس. في المرتبة الثانية كان يريد أن يبقىٰ قريبًا من الجميلات. كان عابدًا لهن بالمعنىٰ الجيد والسيئ للعابد، كان القرب منهن ضروريًّا كالنَّفَس، كان الجميع يستطيع أن يرىٰ ويضحك علىٰ تقديسه وإجلاله للجمال والسحر، وأحبت السيدات في المسرح والبلاط وبيوت الهوىٰ صحبته، كُنَّ يعذبنه ويهنه ويسألنه النصيحة وكن يجدن عزاء عظيمًا بتفانيه الساذج، عانىٰ كثيرًا من نوبات غضبهن ولؤمهن ودموعهن التي كن يعهدن بها إليه، كل الذي كان يريده هو أن يتقبلنه دون تكلف، وأن يثقن به وأن يترك

ككلب ودود وأحمق بعض الشيء ليدخل إلىٰ غرفهن وأن يكتب رسائلهن، كان لديه فضول لا يُشبع عن عقولهن وقلوبهن، لم يتوقع أن يحببنه (نستعير للحظة معنىٰ آخر لهذه الكلمة)؛ **ولذلك**: كان يحمل نقوده إلىٰ أجزاء المدينة الأكثر غموضًا. كان دائمًا منفرًا بشكل كبير بحفنة الشعر التي شكلت شاربه ولحيته وعينيه الكبيرتين الساذجتين الحزينتين. حكمت عليه هذه الملامح بالفناء، ومنها اكتسب اسم العم بيو، وكان أكثر ما يُبرز نفسه عندما يقعن في مشكلة؛ كان يقرضهن المال عندما لا يتم اختيارهن للأدوار في المسرح، وعندما يمرضن كان يلازمهن لمدة أطول من ولاء عشاقهن المتزعزع وسخط خدمهن وعندما كان يسرق الوقت أو المرض جمالهن كان يخدمهن لذكرىٰ جمالهن وعندما يمتن كان حزنه الحزن الحقيقي؛ لأنه رأىٰ كل ما أمكن وهن يقطعن رحلتهن.

في المرتبة الثالثة كان يريد البقاء قرب الذين يحبون الأدب الإسباني وروائقه، وخصوصًا في المسرح، اكتشف كل تلك الكنوز لنفسه، استعارها أو سرقها من مكتبات رعاته، كان يقتات عليها في سرية -خلف المشاهد- كما لو كانت هذه الأعمال عن حياته المجنونة، كان يزدري الأشخاص المرموقين الذين مع كل تعليمهم وخدمتهم لم يستشعروا اهتمامًا أو دهشة أمام معجزات الكلمات لكالديرون وثيرفانتس[1]. بينه وبين نفسه تمنىٰ كتابة أبيات الشعر.

---

(١) شاعر وروائي وكاتب مسرحيات إسباني، أبرز أعماله رواية «دون كيهوتي»، التي تعد أول رواية أوروبية حديثة وإحدىٰ أعظم أعمال الأدب الغربي.

لم يدرك أبدًا أن الكثير من الأغاني الساخرة التي كتبها لمسرحيات الغودفيل (مسرحيات هزلية) تحولت لموسيقىٰ شعبية (فلكلورية)، حملت لكل مكان عن طريق الطرق السريعة.

وبسبب إحدىٰ المشاجرات التي تظهر عادة في بيوت الهوىٰ، صارت حياته معقدة جدًّا، وتم إبعاده إلىٰ بيرو، كان العم بيو في بيرو أكثر تنوعًا من العم بيو في أوروبا، هنا أيضًا خبر العقار والسيرك والترفيه والتمرد والقطع الأثرية. جرف التيار بعض الخردة الصينية من كانتون[1] إلىٰ أمريكا وجر العم بيو قطع البالة من البورسلاين الشديد الحمرة علىٰ طول الشاطئ وباع الأوعية إلىٰ جامعي القطع الفنية. تتبع بعض الوصفات المحلية للإنكا، وبدأ تجارة ذكية في حبوب الدواء. في غضون أربعة أشهر كان قد عرف جميع من في ليما. أضاف إلىٰ هذه المعارف الكثير من مستوطني المدن الساحلية ومعسكرات التعدين والمستوطنات في الداخل، إدعاءه القدسية أصبح متقبلًا أكثر فأكثر. اكتشف الحاكم بيو وثراء علاقاته فوظف خدماته في كثير من الأمور.

في فترة انحدار حكمه، احتفظ دون أندريس بموهبة واحدة، كان الخبير في إدارة العملاء السريين. عامل العم بيو بكثير من اللياقة وبعض الإذعان؛ أدرك أي الأعمال يجب ألا يطالب العم بيو بأدائها كما أدرك احتياجه للتغيير والراحة. بالمقابل كان العم

(١) مقاطعة جنوب الصين.

بيو مندهشًا باستمرار كيف أن الأمير قليل الاستغلال لمنصبه من أجل القوة أو من أجل الأحلام أو لمحض المتعة في التلاعب بأقدار الآخرين، لكن الخادم أحب سيده؛ لأنه كان باستطاعته أن يقتبس من أي من مقدمات ثيرفانتيس، ولأنَّ لسانه ما زال يمتلك قليلًا من الملح الكاستيلاني. في كثير من الصباحات يدخل العم بيو القصر من خلال ممرات لم يكن يمر فيها غير المعترف بذنبه أو مشاغب مُتخفٍّ، ويجلس مع الحاكم وهو يتناول شيكولاته الصباح.

لكن مع كل تلك الأنشطة لم يجعله أيٌّ منها غنيًّا، يمكن لأحدهم أن يقول إنه يتخلىٰ عن المشروع كلما هدد بالنماء، كان يمتلك بيتًا مع أنَّه لم يُعلم أحدًا بذلك. كان المنزل مليئًا بالكلاب التي يمكنها أن تتكاثر وبينما الطابق العلوي كان محجوزًا للطيور، ولكن حتىٰ في هذه المملكة كان وحيدًا وفخورًا بوحدته، وكأنَّه قد كان هناك شيء من الاستعلاء في هذه العزلة. أخيرًا عثر علىٰ مغامرة أتت كهيئة غريبة من السماء. جمعت تلك المغامرة أهداف حياته الثلاثة: (شغفه بمراقبة حياة الآخرين، وعبادته للجميلات، وحبه لكنوز الأدب الإسباني)، اكتشف كاميلا نيريكول، اسمها الحقيقي ميكايلا فيليجاس، كانت تغني في المقاهي في عمر الثانية عشرة ودائمًا ما كان العم بيو روح هذه المقاهي، وبينما هو جالس وسط عازفي الجيتار راقب هذه البنت غريبة الأطوار وهي تغني الأهازيج تحاكي كل انحناءة للفنانين الأكثر خبرة الذين سبقوها؛

عقد العزم أن يلعب دور بيجماليون[1]، تبناها وبدلًا من النوم في سلة النبيذ ورثت كاميلا سريرًا للأطفال في بيته. كتب لها الأغاني وعلمها كيف تستمع إلىٰ جودة نبرة صوتها. اشترىٰ لها ثوبًا جديدًا. في البداية، كان كل ما لاحظته أنَّه كان من الرائع ألا تتعرض للجلد وأن يقدم لها الحساء الساخن وأن تدرس شيئًا لكن العم بيو كان هو من خُطف لبه حقًّا. أثمرت تجربته المتسرعة متجاوزة كل التنبؤات. التهمت طفلة الثانية عشرة الصامتة دومًا والمبتهجة أحيانًا العمل. أعد لها عددًا لا حصر له من تمارين التمثيل والمحاكاة وأعد لها تمارين في إيصال إحساس الأغنية. أخذها إلىٰ المسارح وجعلها تنتبه إلىٰ أدق التفاصيل في الأداء لكنه تلقىٰ أكبر صدماته من كاميلا المرأة. **أخيرًا**؛ تناغمت الأذرع والأرجل الطويلة في جسم ليكون في منتهىٰ الرشاقة.

أصبح الوجه الجائع والقبيح تقريبًا جميلًا. أصبحت طبيعتها لطيفة وغامضة، وللمفارقة حكيمة، والفضل في ذلك كله يعود للعم بيو. لم تستطع أن تجد فيه عيبًا، وكانت صلبة في وفائها له. أحب كلٌّ منهما الآخر بشدة، لكن من دون اشتهاء. احترم هو ظل التوتر الخفيف الذي كان يعلو وجهها عندما يقترب منها، لكن من هذا الإنكار نفسه فاح عبق رقة، شبح العاطفة ذاك الذي في أكثر العلاقات غير المتوقعة يستطيع أن يجعل حياة كاملة مكرسة لمهمة مملة، حلمًا جميلًا.

---

(١) إحدىٰ شخصيات الأساطير اليونانية عمل كنحات ووقع في حب منحوتاته.

سافرَا كثيرًا بحثًا عن حانات جديدة؛ لأنَّ أكثر مميزات مغنية المقهىٰ هو تفردها، ذهبا إلىٰ المكسيك وملابسهما الغريبة ملفوفة في نفس قطعة الشال. ناما علىٰ الشاطئ؛ جُلدا في بنما وتحطمت سفينتهما علىٰ إحدىٰ جزر المحيط الهادئ الصغيرة وقد غطتهما مخلفات الطيور، اجتازا الغابات سيرًا علىٰ الأقدام مختارين طريقهم بعناية وسط الثعابين والخنافس، باعا نفسيهما كعمال حصاد في موسم صعب، لم يكن شيء في العالم مفاجئًا لهما، بعد ذلك بدأ برنامج تدريب أصعب للفتاة، برنامج يشابه أكثر إعداد لاعب البهلون. جعل صعودها السريع للنجومية مهمة تدريسها أكثر تعقيدًا بجانب خطر أن التصفيق الذي تتلقاه سيجعلها راضية عن أدائها قبل الأوان.

لم يضربها عم بيو قطُّ، لكنه لجأ إلىٰ السخرية التي كان لها رعبها الخاص. في ختام كل عرض ترجع كاميلا إلىٰ غرفة تغيير الملابس الخاصة بها؛ لتجد العم بيو يصفر بأريحية في أحد جوانب الغرفة، تُخمن انطباعه علىٰ الفور وتبكي: «ماذا الآن؟! بحق أم الرب! بحق أم الرب ماذا الآن؟!».

لا شيء أيتها اللؤلؤة الصغيرة! صغيرتي كاميلا الكاميلات لا شيء».

«كان هناك شيء لم يعجبك أنت يا كاشف الأخطاء القبيح، هيا قل ماذا كان؟ اسمع أنا مستعدة».

«لا أيتها السمكة الصغيرة، يا نجمة الصباح المحبوبة، أعتقد أنك فعلت أفضل ما بوسعك».

لم تكف أبدًا الإشارة بأنها فنانة محدودة القدرات، وأن هناك بعض المقامات الرفيعة التي أغلقت أبوابها دونها في جعل كاميلا تفقد صوابها. كانت تنفجر باكية: «أتمنىٰ لو أني لم أعرفك، أنت تسمم حياتي كلها، تعتقد أنني أديت أداءً سيئًا، يعجبك أن تتظاهر بأنه كان سيئًا، حسنًا! إذًا ابقَ صامتًا».

كان العم بيو يتابع صفيره.

«في الحقيقة أنا أعلم أنني كنت ضعيفة اليوم، ولا تحتاج أن تقول لي هذا. دونك الآن، اغرب عن وجهي، لا أريد رؤيتك في الأرجاء، إنه من الصعوبة بما يكفي أن ألعب هذا الدور دون الرجوع لأجدك علىٰ هذه الحال».

فجأة يميل عم بيو إلىٰ الأمام ويسأل بغضب شديد: «لماذا أخذت ذلك الخطاب إلىٰ السجين بسرعة شديدة؟».

المزيد من الدموع من البيريكول ...

«أوه! يا رب اجعلني أموت بسلام! تقول لي يومًا أن أذهب أسرع وفي يوم أن أذهب أبطأ، عمومًا يبدو أنني سأجن في غضون عام أو عامين، وبعدها لن يهم المزيد من الصفير. علاوة علىٰ ذلك: صفق الجمهور بحرارة غير مسبوقة هل تسمعني؟ دونك! سريعًا جدًا، أو بطيئًا جدًا، لا يعني لهم شيئًا، لقد انتحبوا باكين، كان أدائي ربانيًا، هذا كل ما أهتم به الآن اصمت اصمت».

صمت تمامًا.

«يمكنك أن تسرح شعري، لكن إذا تفوهت بكلمة عن المسرحية لن أمثل ثانية. يمكنك أن تبحث عن فتاة أخرىٰ، هذا كل شيء».

في تلك اللحظة كان يسرح شعرها بهدوء لعشر دقائق متظاهرًا بأنَّه لم يرَ النحيب الذي كان يهز جسدها المنهك. في الأخير كانت تلتف بسرعة وتمسك بإحدىٰ يديه وتُقبلها بجنون: «عم بيو هل كنت سيئة جدًّا؟ هل كنت عارًا بالنسبة لك؟ هل كان سيئًا لدرجة جعلتك تغادر المسرح؟

بعد صمت طويل يعترف العم بيو بإنصاف «لقد كنت في مشهد السفينة . . .».

«لكني كنت أفضل، عم بيو تذكر الليلة التي عدت فيها من كوسكو؟».

«لقد كنت جيدة جدًّا في الختام».

«أليس كذلك؟».

«لكن يا زهرتي يا لؤلؤتي ماذا كان خطب الحديث إلىٰ السجين؟».

في هذه اللحظة كانت ترمي بيدها ووجهها علىٰ الطاولة وسط مراهم الشعر، وتنخرط في موجة من النحيب. فقط الكمال سيكون كافيًا فقط الكمال، وهذا الكمال لم يأتِ قط. بعدها يبدأ العم بيو في صوت منخفض يتكلَّم لساعة يحلل المسرحية داخلًا إلىٰ عالم

الإتقان والبراعة فيما يختص بالصوت والإشارة والإيقاع، وأحيانًا يقبعان هناك إلىٰ الفجر يُلقيان لبعضهما محادثات كالديرون الربانية.

من هم الذين كان هؤلاء الاثنان يسعون لإرضائهم؟ ليس جمهور ليما، جمهور ليما رضي منذ أمد بعيد.

لقد أتينا من عالم عرفنا فيه معايير مذهلة للامتياز ونتذكر بخفوت روائع لم نحصل عليها مجددًا ونرجع إلىٰ ذلك العالم. عذب العم بيو وكاميلا في محاولة لجعل معايير المسارح في بيرو معايير مسارح جنة ما حيث سبقهما كالديرون. الجمهور المعنىٰ بهذه الروائع ليس موجودًا علىٰ الأرض. مع مرور الوقت فقدت كاميلا بعض هذا الانغماس في فنها، جعلتها بعض حقب الازدراء للتمثيل مهملة. كان هذا بسبب ضعف الاهتمام بأدوار النساء في الدراما الإسبانية الكلاسيكية. وفي الوقت الذي اجتمع فيه كتاب المسرحيات في بلاط فرنسا وإنجلترا (بعد البندقية بقليل)؛ ليُثروا أدوار المرأة بدراسات عن الفكاهة والسحر والعاطفة والهيستريا أبقىٰ دراميو إسبانيا عيونهم مسلطة علىٰ أبطالهم السادة الذين مزقهم الصراع بين دعاوىٰ الشرف أو علىٰ المذنبين العائدين في اللحظة الأخيرة إلىٰ الصليب لعدد من السنين. ولعدد من السنين أفنىٰ العم بيو نفسه في اكتشاف طرق لإثارة اهتمام البيريكول في الأدوار المسندة إليها. في إحدىٰ المناسبات كان قادرًا أن يخبر كاميلا أن حفيدة فيكو دي باريرا وصلت البيرو. أخبر العم بيو كاميلا من وقت بعيد بتبجيله للشعراء الكبار ولم تتشكك كاميلا يومًا في كونهم

أعلىٰ مكانة من الملوك وليسوا أدنىٰ من القديسين؛ **لذلك**: اختار الاثنان إحدىٰ مسرحيات الأستاذ بحماس شديد لتؤدىٰ أمام حفيدته.

تدربوا علىٰ القصيدة مئات المرات حينًا مع متعة الإبداع والابتكار، وحينًا في إحباط في ليلة العرض كانت كاميلا تسترق النظر من طيات ستارة المسرح. أشار عم بيو إلىٰ المرأة في منتصف العمر وقد أنهكها الفقر المدقع والعائلة الكبيرة، لكن بدا لكاميلا أنَّها كانت تنتظر الجمل التي سبقت دخولها. تعلقت بالعم بيو في صمت مهيب وقلبها ينبض بصوت عالٍ. بين المشاهد لجأت إلىٰ ركن مغبَّر من المستودع، حيث لا يجدها أحد وجلست تنظر إلىٰ أركان المكان. في ختام العرض أحضر العم بيو حفيدة فيكو دي باريرا إلىٰ غرفة كاميلا، وقفت كاميلا بين الأثواب المعلقة علىٰ الحائط تنحب باكية من السعادة والخزي. أخيرًا جثت علىٰ ركبتيها وقبلت يدي المرأة الأكبر سنًا وقبلت هي الأخرىٰ يدي كاميلا. وفي حين أنَّ الجمهور قد ذهبوا لبيوتهم وخلدوا إلىٰ النوم كانت الزائرة تحكي لكاميلا القصص الدقيقة التي بقيت في العائلة عن أعمال فيكو وعاداته.

كان عم بيو في قمة سعادته عند انضمام ممثلة جديدة للشركة؛ لأنَّ اكتشاف موهبة جديدة إلىٰ جانب البيريكول كان يوقد حماسها ويحفزها. بدا للعم بيو (الذي كان يتمايل في مؤخر المسرح بفرح وخبث) أن جسد البيريكول أصبح كمصباح من المرمر وُضع بداخله

ضوء ساطع. من دون لجوء للخداع أو التأثير الكاذب كانت تعزم علىٰ طمس القادم الجديد. إذا كانت المسرحية كوميدية صارت تجسيدًا للفكاهة وإذا كانت دراما نساء مظلومات وكراهيات محمومة (كما هو الحال في معظم الأحيان) اشتعلت خشبة المسرح بعواطفها. أصبح حضورها علىٰ الخشبة مؤثرًا، لدرجة أنَّها إذا وضعت يدها علىٰ يد أحد زملائها من الممثلين سرت قشعريرة في الجمهور.

لكن لحظات الكمال هذه صارت أقل ظهورًا، فمع تحسين مهاراتها أصبح صدق كاميلا وإحساسها أقل ضرورة. لم يلحظ الجمهور الفرق حتىٰ عندما كانت شاردة الذهن ووحده العم بيو حزن لذلك.

كان وجه كاميلا جميلًا جدًّا، أو بالأحرىٰ جميلًا إلَّا في الراحة يندهش أحدهم عندما يكتشف أنَّ الأنف كان طويلًا ونحيفًا، والفم متعبًا وطفوليًّا بعض الشيء، والعيون غير راضية، بل الأحرىٰ وجه شاحب لفتاة مزارعة تم جرها من مقاهي الغناء غير قادرة تمامًا علىٰ تكوين تناغم بين دعاوىٰ فنها وشهيتها وأحلامها وجدولها (روتينها) اليومي المكتظ.

كل واحد من هذه الأشياء كان عالمًا لوحده وستختزل الحرب بعينها قريبًا إلىٰ بداهة جسد أقل عنادًا. لقد رأينا أنَّه بالرغم من عدم رضاها عن أدوارها عرفت البيريكول جيدًا المتعة المكنونة في التمثيل ودفأت نفسها من وقت لآخر بهذه الشعلة، لكن شعلة

الحب تلك جذبتها أكثر مع أنَّه لم يأتِ معها ضمانات للسعادة إلىٰ أن أرسل لها جوبيتر نفسه بعض اللؤلؤ.

كان دون أندريس دي ريبرا -حاكم بيرو- بقايا رجل لطيف وطريف حطمته موائد الطعام والمحراب والمنصب وعشر سنين من النفي. في شبابه رافق البعثات إلىٰ فيرساي وروما وقاتل في حروب المسا وذهب إلىٰ القدس. كان أرملًا بلا أطفال لامرأة ثرية وعظيمة الجسم، جمع العملات لبعض الوقت وجمع النبيذ والممثلات والأوسمة والخرائط. اكتسب من الموائد النقرس ومن المحراب التشنجات ومن المنصب غرورًا ضخمًا وصبيانيًّا لدرجة أنه نادرًا ما استمع لشيء قيل له وكان يتحدث إلىٰ السقف في مونولوج مستمر ومن المنفىٰ محيطات من الملل، ملل مقنع لدرجة أنه صار كالألم، استيقظ به وأمضىٰ يومه معه وجلس علىٰ سريره طوال الليل يراقب نومه. كانت كاميلا تقضي السنوات في روتين العمل المضني للمسرح. حلَّىٰ ذلك الروتين بعض علاقات الغرام المتناثرة هنا وهناك عندما ظهر هذا الشخص الأولمبي؛ (لأنَّه كان لديه وجه وهيئة تؤهله للعب دور الآلهة والأبطال في المشاهد)، ونقلها إلىٰ ألذ وجبات العشاء في منتصف الليل في القصر. بخلاف كل تقاليد المسرح والدولة أحبت مُعجبها الأكبر سنًّا. اعتقدت أنها ستكون سعيدة إلىٰ الأبد. علَّم دون أندريس البيريكول أشياء كثيرة عظيمة وبالنسبة لعقلها الذكي والمتعطش كان ذلك واحدًا من أحلىٰ مكونات الحب، علمها القليل من الفرنسية علمها أن تكون نظيفة

ومرتبة وعلمها طرق المخاطبة. كان العم بيو قد علمها كيف تتصرف السيدات في المناسبات الكبيرة وكيف يسترخين. دربها العم بيو وكالديرون علىٰ الإسبانية الجميلة وزودها دون أندريس بلهجة إل بوين ريترو[1].

جعلت الدعوة الموجهة للبيريكول من القصر العم بيو قلقًا كان يفضل أن تستمر في علاقاتها الغرامية المبتذلة في مستودعات المسرح، لكن عندما رأىٰ أن فنها يكتسب لمسة جديدة كان مسرورًا. كان يجلس في مؤخر المسرح يتقلب في مقعده من الفرح والمتعة وهي تُلمح إلىٰ الجمهور أنها خبرت العالم العظيم الذي كتب عنه الدراميون. أصبح لديها طريقة جديدة في حمل كأس النبيذ وفي تبادل الوادعات وطريقة جديدة للدخول من الباب كشفت عن كل شيء عنها. بالنسبة للعم بيو لم يهمه شيء آخر.

ما الشيء الأكثر جمالًا في العالم من امرأة جميلة تعطي روائع الأدب الإسباني حقها؟ عرض مسرحي؟ يسألك. قد احتشدت فيه الملاحظات الدقيقة حتىٰ فصل الكلمات فيه يكشف عن تعليق عن الحياة، وعن النص الذي يؤدِّي بصوت جميل يوضح بنقل صحيح وجمال شخصية فائق وسحر لا يقاوم؟ يهمهم بينه وبين نفسه نحن علىٰ وشك أن نأخذ هذه الرائعة إلىٰ إسبانيا، لكن قبل أن

---

(١) إشارة إلىٰ الحديقة الملكية في مدريد والعائلة المالكة الإسبانية التي كانت تملك حتى القرن التاسع عشر.

يرحل يجد المجال ليسألها أين باسم عذراوات كولون الأحد عشر ألفًا[1]. تعلمت تلك الطريقة الجديدة لقول سيادتك بعد فترة من الزمن، سأل الحاكم البيريكول إذا ما كان يروق لها دعوة القليل من الضيوف السريين إلىٰ عشاء منتصف الليل وسألها ما إذا كانت تريد مقابلة كبيرة الأساقفة. كانت كاميلا سعيدة جدًا. كان كبير الأساقفة سعيدًا في أمسية لقائهما الأول أرسل لها قلادة زمردية بحجم ورق اللعب. كان هناك شيء في ليما لُفَّ في ياردات من الحرير البنفسجي برز منهما رأس كبير أصابه الاستسقاء ويدان لؤلؤيتان سمينتان وكان هذا الشيء هو كبير أساقفة ليما.

بين طيات اللحم التي أحاطت بها برزت عينان سوداوان تنطق بالضيق واللطف والظرافة، روح تواقة ومتطلعة قد سجنت في كل هذا الشحم لكن أثرًا غائرًا من عدم منعه نفسه مطلقًا من التدرج[2]، أو الأوز، أو فوجه اليومي من النبيذ الروماني جعله سجَّان نفسه اللئيم. أحب كاتدرائيته. أحب مهامه. كان متفانيًا جدًا. في بعض الأيام ينظر إلىٰ سمنته ويرثي لنفسه لكن معاناة الرثاء والأسىٰ علىٰ

(١) إشارة إلىٰ أسطورة القديس أورسلا التي بطلب من أبيها ملك دو مونينا (مملكة بريطانية رومانية تقع اليوم في الجزء الغربي من الجنوب الغربي لإنجلترا) أبحرت في رحلة للانضمام إلىٰ زوجها الوثني حاكم أرموريكا (جزء من الشمال الغربي لفرنسا) ومعها أحد عشر ألفًا خدمًا لها. قتل شعب الهون جميع خدمها في مجزرة.

(٢) طير جميل الصورة، أرقش له رأس معتدل ومنقار غليظ وقوي. [«موقع معجم المعاني»].

النفس كان أخف وطأة من معاناة الصيام. كان يُعثر عليه يتأمل في الرسائل السرية التي يرسلها نوع معين من الشواء إلىٰ نوع معين من السلطة ليتبعه، ولكي يعاقب نفسه كانت حياته مثالًا يحتذىٰ في جميع المجالات الأخرىٰ.

قرأ كل أدب العصور القديمة، ونسي كل شيء بخصوصه عدا عبق السحر والتحرر من الوهم. درس في كنيسة الآباء وفي المجامع ونسي كل ما يتعلق بها خلا أثر طافٍ علىٰ السطح لاختلافات ليس لها أي تطبيق في بيرو. قرأ روائع أدب الإباحية في فرنسا وإيطاليا، وأعاد قراءتها كل سنة حتىٰ في خضم آلام الحصوة (تم علاجها بكل سرور بالشرب من مياه ينابيع سانتا ماريا كلوكسامبوكوا) لم يجد شيئًا أكثر إنعاشًا لنفسه من حكايات برانتوم[١]، والقديس أريتينو[٢]. كان كبير الأساقفة يعلم أن جميع قساوسته أوغاد، تطلب الأمر استحضار تعليمه الأبيقوري[٣] ليمنعه من فعل شيء بخصوص ذلك. كان عليه أن يردد لنفسه مرات ومرات مفاهيمه المفضلة أن الظلم والحزن ثوابت في العالم وأن نظرية التقدم وهم، وأن الفقراء الذين لم يعرفوا السعادة مطلقًا

---

(١) مؤرخ وجندي وكاتب سير فرنسي.

(٢) شاعر وكاتب إيطالي له تأثير كبير علىٰ الفن والسياسة -لنقده اللاذع لأصحاب السلطة- ويعد مؤسس أدب الإباحية الحديث.

(٣) نسبة للفيلسوف اليوناني إيبكورس الذي تقوم فلسفته علىٰ أن هدف الحياة والغاية منها هو المتعة الجسدية.

لا يشعرون بالمعاناة. كشأن جميع الأغنياء لم يستطع أن يحمل نفسه علىٰ تصديق أنَّ الفقراء (انظر إلىٰ بيوتهم وانظر إلىٰ ملابسهم) يمكن أن يعانوا بالفعل، ككل النخب اعتقد أنَّ الأمر الوحيد الذي يمكن قوله بشكل عام عنهم أنَّهم ليسوا سعداء.

في مناسبة من المناسبات استدعت الممارسات السيئة في أبرشيته اهتمامه وكاد أن يفعل شيئًا بخصوصها. كان قد سمع للتو أنَّه قد أصبح كالقاعدة في بيرو أن يحصل القساوسة علىٰ مقدار وجبتين من أجل غفران لا بأس به ومقدار خمس وجبات من أجل غفران فعال. ارتعش من الغضب وصرخ في سكرتيره وأمره بإحضار أدوات الكتابة وأخبره بأنَّه يريد أن يوجه رسالة قاسية إلىٰ رعاياه، لكن لم يكن هناك حبر متبقي في المحبرة، ولم يتبقِ حبر في الغرفة المجاورة، ولم يتم العثور علىٰ حبر في كل القصر أساءه جدًّا ما آلت إليه الأمور في أبرشيته، لدرجة أنَّ الرجل الطيب مرض من الغضب المتراكم وتعلم أن يدرس نفسه في موجات الانفعال. كانت إضافة كبير الأساقفة إلىٰ العشاء ناجحة جدًّا مما حدا دون أندريس بالتفكير في ضم أسماء جديدة. أصبح اعتماده علىٰ العم بيو متزايدًا، لكنه انتظر حتىٰ تقترح كاميلا ضم مرافقها في الوقت المناسب. أحضر له العم بيو طواف البحار كابتن ألفارادو. عادة كان الاجتماع يبدأ قبل ساعات قبل أن تستطيع كاميلا الانضمام لهم بعد انتهاء عرضها في المسرح. كانت تصل في حوالي الواحدة مشرقة ومزينة بالجواهر ومنهكة جدًّا استقبلها الأربعة رجال كما

يستقبلون ملكة عظيمة. كانت تحمل عبء الحوار لساعة تقريبًا، ثم تنسحب قليلًا وتميل شيئًا فشيئًا علىٰ كتف دون أندريس وتتابع الحديث ينتقل من وجه باسم إلىٰ آخر. تحدثوا طوال الليل يواسون قلوبهم التي دومًا ما تاقت إلىٰ إسبانيا ويخبرون أنفسهم أن اجتماعًا كهذا هو سعىٰ خلف أخلاق الروح الإسبانية العالية. تحدثوا عن الأشباح والتنبؤ بالمستقبل والأرض قبل ظهور الإنسان عليها وعن احتمالات اصطدام الكواكب ببعضها لحظة الاحتضار، وتساءلوا عن قدوم المسيح الثاني إلىٰ القدس، وإذا ما كان الخبر سيستغرق زمنًا طويلًا للوصول إلىٰ ليما. تحدثوا حتىٰ طلوع الشمس عن الحروب والملوك والشعراء والعلماء والبلدان الغربية، صب كل واحد منهم في الحوار مخزونه من الحكايات الحزينة والحكيمة وعن ندمه الجاف علىٰ عرق الإنسان.

اجتاح سيل من الضوء الذهبي جبال الإنديز ودخل مقتحمًا النافذة الكبيرة ليقع علىٰ أكوام الفاكهة وقطعة القماش المصبوغة المزركشة وجبهة البيريكول المتأملة البهية وهي نائمة علىٰ كم حاميها. يسود صمت طويل، ولا يرغب أحد في أن يكون أول المغادرين وينصرف نظر الجميع إلىٰ هذا الطائر الجميل الغريب الذي يعيش بينهم، لكن نظرات العم بيو لم تفارقها طيلة الليل نظرات خاطفة من عينيه السوداوين مليئة بالرقة والقلق إلىٰ سبب الحياة وسرها العظيم.

لكن العم بيو لم يتوقف أبدًا عن النظر إلىٰ كاميلا. قسَّم

سكان هذا العالم إلىٰ مجموعتين مجموعة من أحبهم ومجموعة من لم يحبهم. كانت أرستقراطية فظيعة فعلىٰ ما يبدو أن هؤلاء الذين لم تكن لديهم القدرة علىٰ الحب (أو بالأحرىٰ من لم تكن لديهم القدرة علىٰ احتمال معاناة الحب) لم يكن ممكنًا أن يقال عنهم أحياء وبالتأكيد لن يعيشوا مرة أخرىٰ بعد الموت، كانوا عبارة عن قش يملؤون العالم بضحكهم ودموعهم وثرثرتهم الفارغة ثم يختفون ويتناثرون في الهواء مع كونهم ما زالوا محبوبين. من أجل هذا التفريق أنشأ تعريفه الخاص للحب الذي لم يكن كأي تعريف آخر، حيث جمع كل مرارات الحب وكبريائه في حياته الغربية، نظر للحب كنوع من المرض القاسي الذي يجب أن يقاسيه الشخص المُعَنَّي في أواخر شبابه ثم يشفىٰ منه وهو شاحب قد اعتصر المرض جسده، لكنه مستعد لمكابدة الحياة. كان هناك (هكذا أعتقد) ذخيرة كبيرة -لحسن الحظ- من الأخطاء المستحيلة لهؤلاء الذين تعافوا من هذا المرض. للأسف تبقىٰ لهم عدد من الإخفاقات لكنهم علىٰ الأقل (من الأمثلة الكثيرة) لم يخطئوا أبدًا في تبنىٰ اللطف الدائم كأسلوب حياة ولم ينظروا لأي إنسان -من الأمير إلىٰ الخادم- كغرض مادي. لم يتوقف عم بيو عن مراقبة كاميلا؛ لأنَّه بدا له أنَّها لم تخض أبدًا هذا الإعداد. في الأشهر التي تلت تعريفها بالحاكم حبس العم بيو أنفاسه وانتظر. حبس أنفاسه لسنوات. حملت كاميلا بأطفال الحاكم الثلاثة وبقيت علىٰ حالها. كان يعرف أن ولوجها إلىٰ امتلاك العالم حقيقة كان عن

طريق إتقان بعض المؤثرات في تمثيلها. كانت هناك بعض المقاطع في المسرحيات التي في يوم من الأيام ستتقنها كاميلا ببساطة ويسر ومنعة خفية؛ لأنَّ هذه المقاطع تُلمح إلىٰ الحكمة الغنية الجديدة التي ملأت قلبها. لكنَّ تعاملها مع تلك المقاطع أصبح شيئًا فشيئًا سطحيًّا فضلًا عن أنه كان مخزيًا. لاحظ العم بيو أنَّها ملَّت من دون أندريس، وعادت إلىٰ سلسلة علاقاتها الغرامية العابرة مع الممثلين ومصارعي الثيران في المدينة.

أصبحت شيئًا فشيئًا ملولة من التمثيل، ووجد طفيلي آخر الطريق إلىٰ عقلها، أرادت أن تصبح سيدة. نما بداخلها ببطء نهم للاحترام والتقدير وبدأت تصف تمثيلها بالهواية. اتخذت حاجبة وحُرَّاسًا، وذهبت للكنيسة في الساعات المهمة، حضرت أيام التكريم في الجامعة، وظهرت ضمن المتبرعين للجهات الخيرية. نما النهم حتىٰ إنَّها تعلمت قليلًا من القراءة والكتابة. كانت تتصدىٰ لأي تلميح بالتمييز ضدها علىٰ أنها بوهيمية[1] بالغضب. جعلت حياة الحاكم مزرية لولعها بالعطاءات واغتصابها المتزايد للامتيازات، حلت السيئة الجديدة مكان القديمة وأصبحت مدعية للفضيلة بشكل مزعج. اختلقت بعض الوالدين والأقارب. جعلت أطفالها أطفالًا شرعيين دون توثيق. في المجتمع تبنت دعارة اللطف والوقار كما تفعل السيدة المبجلة وحملت الشموع في

---

(١) سوقية.

مسيرات التوبة جنبًا إلىٰ جنب سيدات ليس لهن ما يندمن عليه عدا فورة غضب ونظرة خاطفة إلىٰ ديكارت[1]. كان التمثيل خطيئتها، وكان الجميع يعلم بوجود حتىٰ قديسين كانوا قبلها ممثلين، كالقديس غلاسيوس، والقديس ساجينيسوس، والقديسة مارجريت (قديسة أينوخ)، والقديس بيلاغي. كان هناك مكان سقاية مشهور علىٰ هضاب ليست بعيدة من سانتا ماريا كلوكسامبوكوا. سافر دون أندريس وفكر أن يبني لنفسه نموذجًا مصغرًا لمدينة فيتشي[2]، حيث كان هناك باغودا[3]، وبعض غرف الاستقبال وحلبة لمصارعة الثيران، وبعض الحدائق الفرنسية.

لم تعرف صحة كاميلا شبح المرض قطُّ، لكنَّها بنت لنفسها بيتًا في الأرجاء وارتشفت المياه البغيضة في الحادية عشرة. تركت الماركيزا دي مونتيمايور صورة بديعة لجنة الأوبرا الساحرة هذه مع مسيرات الحساسية المحمومة التي كان يسيرها مسئوولي الديانة في أروقة الصدف المطحون واستقبال كل هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يهينوا الحاكم. ترسم دونا ماريا صورة لهذا الحاكم -مهيب ومنهك- يقامر الليل كله بمبالغ يمكنها أن تبني إيسكوريال[4] آخر. بجانب صورة الحاكم ترسم صورة لابنه صغير كاميلا دون هايمي

---

(١) الفيلسوف الفرنسي.

(٢) مدينة منتجعات في مدينة جنوب فرنسا.

(٣) معبد بوذي.

(٤) قصر بناه الملك فيليب شمال غرب مدريد.

في السابعة من عمره كسيح، بدا وكأنَّه لم يرث فقط عيني أمه وجبهتها، بل تشنجات أبيه أيضًا. احتمل ألمه بحيرة الحيوانات الصامتة وكالحيوانات شعر بالخزي عندما ظهرت دلائله في العلن، كان جميلًا جدًّا لدرجة أنَّ صور الشفقة التي هُمس بها في حضوره وطول فكرته عن بلائه أعطىٰ لوجهه كرامة صابرة ومدهشة. ألبسته أمه ثوبًا مخمليًّا بلون العقيق الأحمر وكان عندما يستطيع أن يتبعها لعدة ياردات محررًا نفسه من السيدات اللاتي حاولن أن يأسرنه بالحوار. لم تنزعج كاميلا قط من دون هايمي ولم تكن محبة وحنونة. مع شروق الشمس كان يمكن رؤية الاثنين يتمشيان في صمت علىٰ الشرفات وبينما تتساءل كاميلا متىٰ تبدأ الاحتفالات التي كانت تمثل لها المكانة الاجتماعية، يستمتع دون هايمي بضوء الشمس ويترقب بقلق اقتراب سحابة. بدا الاثنان كأشخاص من بلد بعيد انقطعت بهم السبل علىٰ تلك الشرفات أو كأشخاص خرجوا للتو من مهرجان قديم لم يتعلموا بعد اللغة الجديدة ولم يكونوا بعد بعض الأصدقاء. كانت كاميلا في الثلاثين عندما تركت المسرح وتتطلب منها الأمر خمس سنوات لتحقق مكانتها الاجتماعية. صارت ممتلئة الجسم أخيرًا بالرغم من أن وجهها ازداد جمالًا كل سنة. انصرفت إلىٰ التبرج وعكست أرضيات غرف الاستقبال صرحًا من المجوهرات والأوشحة والريش، كانت يداها ووجهها مغطيان بمسحوق فيه زرقة رسمت عليه فمًا مستفزًّا باللون القرمزي والبرتقالي. كانت نوبات غضبها التي كانت تخرج عن السيطرة

تتغير عند مخاطبتها بلطافة مصطنعة جمعًا من الأرامل الثريات. في المراحل المبكرة من صعودها نحو القمة، حذرت العم بيو من أن يُرىٰ معها في العلن، لكنها أخيرًا ضاقت ذرعًا حتىٰ بزياراته المتخفية. أجرت المقابلات برسمية وتهربت من الأسئلة. لم تتقاطع عيناهما، وبحثت عن ذرائع لافتعال الشجار معه، بالرغم من ذلك كان يزورها مرة في الشهر؛ ليختبر صبرها، وعندما أصبح الاتصال مستحيلًا كان يصعد إلىٰ الأعلىٰ ويقضي بقية الساعة مع أطفالها.

في يوم من الأيام وصل إلىٰ بيتها الذي علىٰ الهضاب ومن خلال خادمتها توسل من أجل فرصة للقائها والتكلم معها، أُخبر بأنَّها ستقابله في الحدائق الفرنسية قبل مغيب الشمس بقليل. جاء من ليما بدافع شعوري غريب. ككل من يعاني من الوحدة كون صداقة مع المجد الرباني. تخيل أن جميع الناس الذين يراهم في الطرقات يضحكون ويتعانقون عند المغادرة -لن تصدقني تمامًا في هذا- لكنَّه تخيل أنَّهم جميعًا يستخرجون من تلك الألفة مخزونًا كبيرًا من القناعة والارتياح؛ **ولذلك**: امتلأ فجأة بالحماسة لرؤيتها مجددًا، ولسماع «عم بيو»، ولإعادة إحياء وللحظة ثقة وفكاهة تشردهما الطويل.

كانت الحدائق الفرنسية تقع في الجهة الجنوبية للمدينة. خلفها ارتفعت جبال الإنديز وأمامها كانت هناك شرفة تطل علىٰ وادٍ عميق وعلىٰ أمواج من الهضاب تتلو الواحدة الأخرىٰ ممتدة

نحو المحيط الهادئ. كان الوقت الذي تحلق فيه الخفافيش وتلعب الحيوانات الصغيرة بتهور تحت القدم. كان بعض النساك يحومون حول الحدائق ينظرون نحو السماء التي كانت تفقد لونها شيئًا فشيئًا، أو اتكأوا علىٰ الدرابزين ونظروا إلىٰ الوادي ليميزوا القرية التي ينبح فيها الكلب.

كانت الساعة التي يرجع فيها الأب من الحقول ويلعب للحظة في الباحة مع الكلب الذي يقفز عليه وهو ممسك بكمامته أو ملقيًا له علىٰ ظهره. كانت الفتيات الصغيرات يبحثن عن النجمة الأولىٰ ليتمنين أمنية والأولاد ينتظرون العشاء بفارغ الصبر. أكثر النساء شغلًا كانت تقف لوهلة ساكنة اليدين تبتسم لعائلتها العزيزة وهم يتضاغون. وقف العم بيو أمام أحد المقاعد الرخامية وراقب كاميلا وهي تقترب نحوه.

قالت: «آسفة علىٰ التأخير ما الشيء الذي أردت أن تكلمني بخصوصه؟».

بدأ بقوله: «كاميلا».

«اسمي دونا ميكايلا».

«لا أرغب في إهانتك لكنك عندما ستسمحين لي بمناداتك بكاميلا لعشرين عامًا علي أن أفكر . . .».

«أوه! افعل ما يحلو لك».

«عديني يا كاميلا أنَّك ستستمعين إلي، عديني أنك لن تنصرفي مع جملتي الأولىٰ».

فجأة انفجرت قائلة بانفعال: «اسمعني عم بيو، أنت مجنون إن كنت تعتقد أنك ستعيدني إلىٰ المسرح، كلما تذكرت المسرح؛ أتذكر الرعب، افهم ذلك، المسرح! المسرح فعلًا! الدفعات اليومية من الشتائم في ذلك المكان القذر، افهم أنَّك تضيع وقتك».

أجاب بهدوء: «لم أكن لأرجع إذا كنتي سعيدة مع هؤلاء الأصدقاء الجدد».

أجابت بسرعة: «لا تحب أصدقائي إذًا؟ من تقترح ليحل مكانهم؟».

«أنا فقط أتذكر يا كاميلا . . .».

«لن أسمح بالانتقاد، لا أريد أي نصيحة سيبرد الجو بعد قليل علي أن أعود إلىٰ البيت. اتركني هذا كل ما في الأمر، أخرجني من رأسك».

«عزيزتي كاميلا لا تغضبي احتمليني لعشر دقائق فقط».

لم يفهم لماذا كانت تبكي بحرقة؟ لم يعرف ماذا يقول؟! تكلم بعشوائية: «أنتِ لا تأتين أبدًا إلىٰ المسرح وسيلحظ الجميع ذلك. بدأ الجمهور يفقد الاهتمام أيضًا. إنَّهم يعرضون الكوميديا القديمة مرتين فقط في الأسبوع، في الليالي الباقية يعرضون هذه المهازل النثرية الجديدة. جميعها مملة وطفولية وغير لائقة. لم يبقَ

أحد يتكلم الإسبانية، ولم يبقَ أحد يستطيع حتىٰ المشي بطريقة صحيحة. في يوم جسد المسيح عرضوا مأدبة بلشاصر[1] التي كنتِ متألقة جدًّا في أدائها، لكنَّها مخزية الآن . . .».

ساد صمت المكان. كان هناك تجمع جميل للسحب -كقطعان الخراف- أتت من البحر منسابة عبر الوادي بين الهضاب. فجأة وضعت كاميلا يدها علىٰ ركبتيه ووجهها كوجهها قبل عشرين عامًا: «سامحني عم بيو علىٰ تصرفي السيئ، هايمي كان مريضًا هذه الظهيرة. ليس هناك ما يمكن للمرء فعله، إنه يجلس هناك ولونه شديد البياض ويعلوه الذهول. لا بُدَّ علىٰ الشخص أن يفكر في أمور أخرىٰ عم بيو، لن يكون من النافع أن أعود إلىٰ المسرح، الجمهور يأتي من أجل المهازل النثرية، كنا حمقىٰ في محاولتنا إبقاء الكوميديا القديمة علىٰ قيد الحياة، دع الناس يقرؤون المسرحيات القديمة من الكتب إن أرادوا ذلك، مقاومة الجمهور ليست مجدية».

«أيتها الرائعة كاميلا، لم أكن منصفًا معكِ عندما كنت علىٰ خشبة المسرح بسبب غروري الأحمق. حرمتك من المدح الذي تستحقينه. سامحيني لقد كنت دائمًا فنانه عظيمة جدًّا. إذا رأيت أنَّك لست سعيدة مع هؤلاء الناس، ربما يمكنك التفكير في الذهاب إلىٰ مدريد. ستحققين نجاحًا هائلًا هناك. ما زلت صغيرة

---

(١) آخر ملوك بابل وردِ ذكره في سفر دانيال، أقام في أحد الأيام مأدبة ضخمة وخلال الحفل رأىٰ كتابة علىٰ الحائط فسرها دانيال بزوال ملكه نظرًا لكفره بالرب.

وجميلة . . . سيكون هناك وقت لتُسمي دونا ميكايلا . سنهرم قريبًا . سنموت قريبًا» .

«لا لن أذهب إلىٰ إسبانيا أبدًا ، العالم كله واحد ، سواء مدريد أو ليما» .

«أوه! لو استطعنا الذهاب بعيدًا إلىٰ جزيرة ما ، حيث يعرفك الناس من أجل شخصك ، ويحبونك من أجل ذلك فقط» .

«بلغتَ الخمسين وما زلت تفكر في تلك الجزر عم بيو!» .

طأطأ رأسه وتمتم : «بالطبع ، أنا أحبك يا كاميلا كما كنت دائمًا ، وأكثر مما يمكنني التعبير عنه ، وجودك وحده كافٍ لكل حياتي ، أنت سيدة عظيمة وغنية الآن . لم تعد هناك طريقة أستطيع مساعدتك بها ، لكني سأكون دومًا جاهزًا للمساعدة» .

قالت بابتسامة : «كم أنت سخيف؟ لقد قلت ذلك كما يقوله الفتيان لا يبدو أنَّك تتعلم مع تقدم العمر يا عم بيو! ليس هناك حب كهذا الذي وصفته ، وليس هناك جزيرة كتلك التي وصفت ، هذه الأشياء تجدها في المسرح» .

بدا عليه الخجل ، لكنَّه لم يكن مقتنعًا .

أخيرًا ؛ نهضت وقالت بحزن : «ما هذا الذي تتكلم عنه ، الجو يبرد لا بُدَّ لي من العودة إلىٰ الداخل ، عليك أن تتوقف ، لم يعد لدي حب للمسرح» .

ساد صمت . . .

«وبالنسبة لبقية الكلام؟».

«لم أفهمه، إنَّها فقط الظروف سأكون ما ينبغي عليَّ أن أكون، لا تحاول أن تفهم أيضًا، لا تفكر فيَّ عم بيو، فقط سامحني، هذا كل شيء، حاول أن تسامح».

وقفت بلا حراك لبرهة تبحث عن شيء مؤثر تقوله له. وصلت السحابة السريعة الشرفة، كان الظلام قد حلَّ وبدأ المشردون يغادرون الحدائق. كانت تفكر في دون هايمي ودون أندريس وفيه. لم تستطع إيجاد الكلمات، فجأة انحنت وقبَّلت أصابعه، وانصرفت مسرعة، لكنَّه جلس طويلًا علىٰ السحاب المتجمع يرتعش من الفرحة محاولًا سبر معاني كل الذي حصل للتو.

فجأة عمت الأنباء المدينة. دونا ميكايلا السيدة التي كانت تُدعىٰ البيريكول أصابها الجدري، أصاب الجدري عدة مئات من الناس، لكن الاهتمام والحقد سُلط علىٰ الممثلة. سرت أمنية غريبة في المدينة بأن الجميلة ستصبح معاقة ممَّا جعلها تمقت الطبقة التي تنحدر منها. تسللت بعض الأخبار من غرفة المريضة أن كاميلا أصبحت سوقية في معيشتها، وقتها، كان كوب الحاسدين قد فاض. فور ما سمحت لها صحتها حملت نفسها من المدينة إلىٰ بيتها في الهضاب، وأمرت ببيع قصرها الصغير الأنيق، أعادت المجوهرات إلىٰ أصحابها الذين أهدوها إياها. باعت ملابسها الأنيقة. حاصر الحاكم وكبير الأساقفة وبعض رجال البلاط الذين كانوا من أشد معجبيها إخلاصًا بابها بالرسائل والهدايا. تم تجاهل

الرسائل وأُرجعت الهدايا دون تعليق، لم يُسمح لأحد عدا الممرضة والخدم برؤيتها منذ بدء مرضها، وكإجابة لمحاولاته المتكررة استلم دون أندريس مبلغًا كبيرًا من المال مع رسالة جمعت كل ما أمكن جمعه من المرارة والكبرياء. كشأن جميع النساء الجميلات اللاتي نشأن وسط إطراءات لجمالهن افترضت كاميلا بكل جدية أن هذا الإطراء هو أساس تعلق أي شخص بها؛ **لذلك**: وجب أن يكون أي اهتمام حصلت عليه نبع من شفقة ملؤوها الاحتقار ومعطرة بعبق رقيق من الرضا بانقلاب أحوالها. نتج افتراض أنها ليست بحاجة إلىٰ إخلاص أو تعلق محب بعد ذهاب جمالها الآن من حقيقة أنها لم تجرب أي حب سوىٰ حب الاشتهاء. هذا النوع من الحب بالرغم أنه يُظهر نفسه عن طريق الكرم وتقدير الآخر وبالرغم من أنه يولد الأحلام والشعر الساحر يبقىٰ من أفج أشكال التعبير عن المصلحة الشخصية. لن يأخذ هذا الحب مكانه بين المخلصين قبل أن يتجاوز فترة خدمة طويلة يحتمل فيها كره النفس والاستهزاء والشكوك الصغيرة.

الكثيرون ممَّن قضوا حياتهم يعيشون هذا النوع من الحب، لا يمكنهم أن يخبرونا عن الحب أكثر ممَّا يستطيعه طفل صغير أضاع كلبه البارحة.

وبينما واصل أصدقاؤها جهودهم في جرها إلىٰ المجتمع مرة أخرىٰ ازداد غضبها وأرسلت المزيد من الرسائل المهينة إلىٰ المدينة. في وقت من الأوقات قبل إنَّها أصبحت متدينة، ناقضت

الإشاعات الجديدة القديمة، فالأخبار تقول إنَّ المزرعة ليس فيها سوىٰ الغضب والإحباط. بالنسبة للمقربين منها، كانت رؤية ذلك الإحباط شيئًا مرعبًا، كانت مقتنعة بأن حياتها وحياة أطفالها قد انتهت. وفي زخم كبريائها الهستيري دفعت أكثر ممَّا كانت مدينة به، فأضيف إلىٰ وحشة المستقبل وظلمته دنو الفقر. لم يعد لديها شيء تفعله سوىٰ أن تقضي أيامها في وحدة غيورة في وسط المزرعة التي بدأت تذبل. فكرت لساعات في نشوة أعدائها وسُمعت صرخاتها الغريبة وهي تحوم في الغرفة.

لم يسمح العم بيو لنفسه بالشعور بالإحباط. استطاع الدخول إلىٰ المنزل وأن يكون في حضرة معشوقته المحتجبة عن طريق جعل نفسه مفيدًا للأولاد والمشاركة في إدارة المزرعة وإقراضها بعض المال، لكن حتىٰ في ذلك الوقت -مقتنعة بكل كبر أنه يشفق عليها- جلدته كاميلا بشفرة لسانها وأحس براحة غريبة من إغراقه بالشتائم. ازداد حبه لها متفهمًا أكثر منها لنفسها وكل مراحل النقاهة لروحها المذلولة. لكن في يوم ما وقع حادث أفقده نصيبه في تحسنها. فتح أحد الأبواب اعتقدت أنها أوصدته. لساعة واحدة فقط أتاها أمر سري وغبي، تساءلت إذا ما كان يمكنها أن تصنع معجونًا من الطباشير والقشطة لتضعه علىٰ وجهها. هي التي كانت في أحد الأوقات تسخر مرارًا من عجائز البلاط ووجوههن المقطبة بالدقيق داعبتنها لوهلة إذا ما كان شيء تعلمته في المسرح سيفيدها الآن. اعتقدت أنَّها أقفلت الباب وبسرعة حركت يديها وضربات قلبها

تتسارع وضعت طبقة من المعجون -الشحوب البشع- وعندما كانت تنظر إلىٰ نفسها في المرآة مدركة عبث محاولاتها لمحت عيناها صورة العم بيو واقفًا مندهشًا عند الباب.

نهضت من الكرسي وهي تصرخ وغطت وجهها بيديها.

صرخت: «ابتعد! ابتعد! اخرج من هذا المنزل للأبد! لا أريد رؤيتك مجددًا!».

ومع شعورها بالخزي ساقته خارج المنزل بالشتائم والكراهية، ولاحقته في الممر، وقذفته ببعض الأغراض وهو ينزل السلم. أعطت الأوامر لمزارعيها أنَّ العم بيو ممنوع من الدخول، لكنَّه حاول لأسبوع أن يراها مجددًا.

في الأخير عاد إلىٰ ليما حاول ملأ الوقت قدر استطاعته، لكنَّه اشتاق ليكون بجانبها كما يشتاق فتىٰ في الثامنة عشرة لرؤيته محبوبته. أخيرًا أعد خطة وعاد إلىٰ الهضاب؛ ليُدخل خطته حيز التنفيذ.

في صباح أحد الأيام استلقىٰ تحت نافذتها، قلَّد في الظلام صوت بكاء طفلة بأفضل ما يستطيع، استمر في هذا لربع ساعة كاملة، لم يسمح لصوته أن يعلو فوق تلك الدرجة من العلو التي يجسدها الموسيقيون الإيطاليون بالبيانو، لكنَّه توقف مرارًا واثقًا أنَّها إذا كانت نائمة؛ فإنَّ الصوت سيُدخل نفسه إلىٰ عقلها بالمدة بالقدر الذي ستُدخله بها درجة العلو.

بدأت تظهر أول خطوط الصبح الزرقاء الباهتة خلف القمم، ومن ناحية الشرفة كان نجم الصباح ينبض مسفرًا مع كل نبضة عن نواياه بشكل أرق. عمَّ صمت مهيب كل مباني المزرعة، وحده نسيم عابر أطلق صوت العشب متنهدًا، فجأة أُضيء مصباح في غرفتها، وبعدها بلحظات فُتح مصراعي النافذة؛ ليمتد منها رأس مغطىٰ بوشاح.

سأل الصوت الجميل: «من هناك؟».

ظل العم بيو صامتًا.

قالت كاميلا مجددًا بنبرة بدأ يعلوها التململ: «من هناك؟ من هذا الذي يبكي هناك؟».

«سيدتي دونا ميكايلا أتوسل إليكِ أن تأتي إلىٰ هنا».

«من أنت وماذا تريدين؟».

«أنا بنت مسكينة اسمي استريلا. أرجوكِ أن تأتي إلي وتساعديني، لا تنادي خادمتك، أتوسل إليك يا دونا ميكايلا أن تأتي بنفسك».

ظلت كاميلا صامتة لوهلة ثم قالت بسرعة: «حسنًا»، وأغلقت مصراعي النافذة، ثم علىٰ الفور ظهرت عند زاوية البيت، كانت ترتدي معطفًا سميكًا جرته علىٰ الندىٰ، وقفت علىٰ مسافة وقالت: «تعالي إلىٰ هنا حيث أقف، من أنتِ؟».

نهض العم بيو: «كاميلا هذا أنا عم بيو، سامحيني لكن لا بُدَّ أن أتحدث معك».

«يا أم الرب! متىٰ سأحرر من هذا الشخص المخيف؟! افهم، لا أريد رؤية أحد، لا أريد التكلم مع إنسان، حياتي انتهت، هذا كل شيء».

«كاميلا بحق حياتنا معًا أتوسل إليك أن تمنحيني شيئًا واحدًا، سأذهب ولن أزعجك مرة أخرىٰ».

«لن أعطيك شيئًا، لا شيء، ابتعد عني».

«أعدك أنني لن أزعجك مرة أخرىٰ، إذا أنصتي لي هذه المرة فقط»، هرولت نحو الباب في الجانب الآخر من البيت، فكان العم بيو مجبرًا علىٰ الركض بجانبها ليتأكد أنها سمعت ما كان يقوله.

توقفت، «ما الأمر إذًا؟ أسرع الجو بارد، لست علىٰ ما يرام، لا بد لي من العودة إلىٰ غرفتي».

«كاميلا دعيني آخذ دون هايمي مدة سنة ليعيش معي في ليما، دعيني أصير معلمه، دعيني أعلمه الكاستيلانية، هنا هو يعيش بين الخدم، إنه لا يتعلم شيئًا».

«لا!».

«كاميلا ما الذي سيأتي منه؟ لديه عقل جيد، ويريد أن يتعلم».

«إنه مريض، إنه ضعيف، بيتك قذر، فقط الريف يصلح له».

«لكنَّه تحسن كثيرًا في هذه الأشهر الأخيرة، أعد أني سأنظف البيت، سأطلب من مادري ماريا ديل بيلار خادمة، هنا هو في الإسطبل اليوم بطوله سأعلمه كل ما يحتاج الرجل أن يتعلمه، المبارزة، واللغة اللاتينية، والموسيقىٰ، نقرأ كل . . .».

«لا يمكن التفريق بين أم وطفلها هكذا، هذا مستحيل، أنت مجنون لمجرد التفكير بذلك. توقف عن التفكير فيَّ وفي كل شيء يتعلق بي، لم أعد موجودة، سأعيش مع أولادي بأفضل ما يمكن، لا تحاول إزعاجي مجددًا، لا أريد رؤية مخلوق».

الآن أصبح العم بيو مضطرًا لاستعمال الحدة، قال: «إذن، ادفعي لي المال الذي تدينين به لي».

وقفت كاميلا مرتبكة بلا حراك، قالت لنفسها: «هذه الحياة مريعة أكثر مما يحتمل متىٰ سأموت؟» بعد وهلة أجابته بصوت أجش: «لدي القليل من المال، سأدفع ما أستطيع لك الآن، لدي بعض المجوهرات هنا، بعدها لا نحتاج لرؤية بعضنا أبدًا».

أشعرها فقرها بالخزي، خطت خطوات قليلة ثم التفتت وقالت: «الآن أرىٰ أنَّك رجل صارم جدًّا، لكن الصحيح أن أدفع لك ما أدين به».

«لا يا كاميلا، أنا قلت ذلك فقط لأؤكد طلبي، لن آخذ منك مالًا، لكن أعيريني دون هايمي لمدة سنة سأحبه وأرعاه جيدًا، هل آذيتك؟ هل كنت معلمًا سيئًا خلال تلك السنوات؟».

«إنَّها قسوة منك أن تستفز الامتنان الامتنان الامتنان، لقد كنت ممتنة لك حسنًا حسنًا، لكن الآن أنا لست نفس المرأة، ولم يبقَ شيء أكون ممتنة له».

ساد صمت . . . نظرت عيناها إلىٰ نجم بدا كأنَّه يسود السماء كلها في سحره سكن ألم فظيع قلبها ألم عالم بلا معنىٰ ثم قالت: «إذا أراد هايمي الذهاب معك حسنًا، سأتكلم معه في الصباح وإذا أراد الذهاب معك ستجده واقفًا في الظهيرة أمام النزل، ليلة سعيدة اذهب ومعك الرب اذهب ومعك الرب».

عادت إلىٰ المنزل، وفي اليوم التالي كان الصبي يقف أمام النزل، كانت ثيابه الأنيقة قد مُزقت وصار عليها بعض البقع، وحمل معه حزمة من العملات الصغيرة. أعطته أمه قطعة ذهبية ليصرف منها بعض المال وحجرًا صغيرًا يضيء في الظلام؛ لينظر إليه عندما يجافيه النوم.

انطلقا في عربة لكن بعد قليل أدرك العم بيو أنَّ اهتزاز العربة لم يكن جيدًا للصبي. حمله علىٰ كتفه، وعندما اقتربوا من جسر سان لويس راي حاول هايمي أن يخفي خجله؛ لأنَّه علم أنَّ إحدىٰ تلك اللحظات التي تفرق بين الناس تقترب، شعر بالخجل بشكل استثنائي؛ لأنَّ عم بيو أردف صديقًا له، قبطان بحري. عند وصولهم للجسر، تكلم العم بيو مع سيدة عجوز تسافر مع فتاة صغيرة. قال العم بيو إنَّهم عندما يعبرون الجسر سيجلسون للراحة، لكن بدا أن ذلك لم يكن ضروريًا.

الفصل الخامس

رُبَّما أمرٌ مقصودٌ

بُني جسر جديد محل القديم، لكن الحدث لم يُنسَ. تحوَّل الجسر إلىٰ أمثالٍ متداولةٍ!

يقول أحد سكان ليما: «سأراك الثلاثاء إلا إذا وقع الجسر». ابن خالي يعيش بجانب جسر سان لويس راي، يقول آخر ثم ترتسم علىٰ وجه الحضور ابتسامة؛ لأنَّ ذلك يعني أيضًا أنَّه يعيش تحت سيف داموكليس[1]. هناك بعض القصائد بخصوص الحادث، وبعض المقطوعات الكلاسيكية في أي من مختارات الأدب البيروفي، لكن النصب الأدبي الحقيقي هو كتاب الأخ جونيبر.

هناك مئات الطرق للتأمل في ظرف ما لم يكن الأخ جونيبر ليصل إلىٰ طريقته لولا صداقته لأستاذ فذ في جامعة سان مارتين. هربت زوجة هذا الطالب في يوم من الأيام علىٰ متن سفينة متجهة إلىٰ إسبانيا؛ لتلحق بجندي، وتركت له رعاية بنتين في المهد. امتلك كل المرارة التي افتقدها الأخ جونيبر، واستمد نوعًا من

(١) مقولة يُراد بها التعبير عن الخطر المحدق والدائم الذي يحيط بأصحاب السلطة.

النشوة من اعتقاد أن كل شيء في هذا العالم خطأ. همس إلىٰ أذن الفرانسيسكاني هذه الخواطر والحكايات كتكذيب لفكرة عالم خلق بتقدير للحظة تعلو عيون جونيبر ضيق - هزيمة شبه مؤكدة - ثم يشرع يشرح بهدوء لماذا لا تشكل قصص كهذه مشكلة للمؤمن؟!

يقول الطالب: كانت ملكة نابولي وصقلية تحمل ورمًا غاضبًا علىٰ جنبها، وفي سخط كبير أمرت رعاياها أن ينكبوا علىٰ صلواتهم، وأصدرت الأوامر بخياطة صليب نذري[(١)] علىٰ جميع الملابس في نابولي وصقلية. كانت محبوبة لرعاياها وكل الصلوات والتطريز علىٰ الملابس كانت صادقة، لكنَّها غير فعالة. ترقد في كنيسة سلبيندور مونريال وربما فوق قلبها ببضع بوصات ستقرأ: «لن أخاف الشر».

كان بفعل سماع الكثير من الاستهزاء بالإيمان أصبح الأخ جونيبر مقتنعًا أنَّ الوقت قد حان لبرهان -برهان موثق- علىٰ الإيمان الذي كان مشعًّا وحيًّا بداخله. عندما عمَّ الطاعون قريته العزيزة بويرتو وأودىٰ بحياة عدد كبير من المزارعين رسم سرًّا مخططًا لصفات خمس عشرة من الضحايا وخمسة عشر من الناجيين، إحصاءات لقيمتهم لو خُلِّدوا للأبد.

قُيِّمت كل نفس من عشرة علىٰ أساس طيبتها والتزامها بالدين وأهميتها بالنسبة للعائلة هذه قطعة من ذلك المخطط.

---

(١) للصلاة لها بالشفاء.

	الطيبة	الصلاح	الفائدة
الفونسو ج	٤	٤	١٠
نينا	٢	٥	١٠
مانويل ب	١٠	١٠	١٠
ألفونسو ق	٨-	١٠-	١٠
فيرا	٠	١٠	١٠

كان الأمر أصعب ممَّا توقَّع، تقريبًا كل نفْس في المجتمعات التي تعيش حياة صعبة كان لا يُمكن الاستغناء عنها اقتصاديًّا، وهكذا أصبح العمود الثالث من الجدول عديم الفائدة. اضطر الباحث لاستعمال القيمة السالبة عندما واجه شخصية ألفونسو ف الذي لم يكن كفيرا مجرد شخص سيء. كان يحرض علىٰ الشر، ولم يكتفِ بمجرد الابتعاد عن الكنيسة، بل دعا الآخرين ليبتعدوا عنها.

كانت فيرا سيئة بالفعل، لكنَّها كانت ناسكة مثالية، كانت كدعامة كخوخ مكتظٍّ. من كل هذه البيانات المحزنة اخترع الأخ جونيبر مؤشرًا لكل مزارع. جمع المحصلة للضحايا وقارنها بالمحصلة للناجيين ليجد أنَّ الموتىٰ كانوا يستحقون الإنقاذ بخمسة أضعاف. بدا وكأنَّ الوباء وُجِّه ضد الأشخاص الطيبين جدًّا في قرية بويرتو. في تلك الظهيرة؛ تمشَّىٰ الأخ جونيبر علىٰ ساحل

المحيط الهادئ، مزق نتائجه ورماها؛ لتلتهمها الأمواج. ظلَّ ينظر طوال ساعة إلىٰ سحب اللؤلؤ الكبيرة العالقة في الأفق للأبد، واستمد من جمالها استسلامًا لم يسمح لمنطقِه بفحصه، فالفروقات بين الإيمان والحقائق هي أكبر ممَّا هو مفترض لها.

لكن كان هناك قصة أخرىٰ للأستاذ الفذ في سان مارتين (ليست مشككة جدًّا هذه المرة) كانت هذه القصة هي -غالبًا- التي أوحت للأخ جونيبر بفكرة مشروعه الذي قام به بعد سقوط جسر سان لويس راي. في يوم من الأيام كان هذا الأستاذ يتمشَّىٰ في كاتدرائية ليما، وتوقف ليقرأ نقشًا علىٰ ضريح سيدة. قرأ وشفته السفلىٰ تبرز بنحو متزايد أنَّ السيدة كانت لعشرين عامًا مركز البهجة لبيتها، وكانت مصدر سعادة أصدقائها، وأن جميع من قابلها انصرف في دهشة من طيبتها وجمالها، وها هي الآن ترقد مستلقية منتظرة عودة ربها. الآن في اليوم الذي قرأ فيه هذه الكلمات كان أستاذ سان مارتين لديه الكثير ليزعجه، ورفع عينيه عن اللوح، ثم صرخ غاضبًا: «عار هذا الشيء، إدانته! الجميع في هذا العالم يعلم أنَّنا لا نفعل شيئًا سوىٰ إشباع رغباتنا، لماذا ننشر أسطورة الإيثار هذه؟ لماذا نبقىٰ إشاعة اللامبالاة هذه حية؟».

وبعد هذا الكلام عزم علىٰ كشف مؤامرة النحاتين. ماتت السيدة قبل اثني عشر عامًا فقط. بحث عن خدمها وأولادها وأصدقائها. وفي كل مكان ذهب إليه -كالعطر- خلدتها آثارها

العزيزة، وأينما ذُكرت ظهرت ابتسامة معاناة والاحتجاج علىٰ أنَّ الكلمات لن تستطيع وصف عطفها. أصبح حتىٰ عنفوان شباب أحفادها -الذين لم يروها مطلقًا- أكثر صعوبة بعد العلم أنَّه من الممكن أن يكون شخص بهذه الطيبة. ووقف الرجل منبهرًا فقط في النهاية تمتم قائلًا: «بغض النظر ما قلته صحيح، هذه المرأة كانت استثناء . . . ربما استثناء».

في أثناء تجميعه للكتاب عن هؤلاء الأشخاص بدا الأخ جونيبر مطاردًا بالخوف من أنَّ إغفال أصغر التفاصيل قد يُؤدِّي لفقد التلميح المرشد؟ وكلَّما عمل أكثر؛ شعر أنَّه يحوم حول تلميحات كثيرة مبهمة. كان يُخدع -دائمًا- بالتفاصيل التي بدت، وكأنَّها مهمة لو أنَّه استطاع أن يعرف جوها المحيط بها؛ **لذلك**: اتكأ علىٰ الفكرة أنَّه إذا قرأ الكتاب عشرين مرة ستبدأ الحقائق الكثيرة جدًّا بالتحرك والتجمع والبوح بأسرارها. أخبره طباخ الماركييزا دي مونتيمايور أنَّها عاشت تقريبًا كل حياتها علىٰ الأرز والسمك وفاكهة صغيرة واعتمد الأخ جونيبر علىٰ الصدفة أنَّ هذه المعلومات ستكشف عن صفة روحانية.

قال دون روبيرتو: إنَّها كانت تأتي إلىٰ حفلته دون دعوة؛ لتسرق الملاعق، صرَّحت قابلة في طرف المدينة أنَّ دونا ماريا أمطرتها بوابل من الأسئلة السخيفة إلىٰ أن اضطُرت لتأمر بها بعيدًا كما يفعل مع المتسولين. حكىٰ بائع الكتب في المدينة أنَّها واحدة

من أكثر ثلاثة أشخاص مثقفين في ليما. صرحت زوجة عامل المزرعة بأنَّها كانت غائبة العقل، لكنَّها مليئة بالطيبة، فن السير أصعب ممَّا يفترض عمومًا.

اكتشف الأخ جونيبر أنَّ أقل ما يُمكن معرفته هو من الأشخاص المقربين للأشخاص المعنيين بالدراسة. حدثته مادري ماريا ديل بيلار طويلًا عن بيبيتا لكنَّها لم تخبره بطموحاتها بشأن بيبيتا.

في بداية الأمر كان التحدث للبيريكول صعبًا، لكنَّها مع الوقت أُعجبت بالفرانسيسكاني، وصفها للعم بيو عارض بوضوح الشهادات البغيضة التي جمعها من أماكن أخرىٰ. إشارتها لابنها كانت قليلة ومحملة بالألم. أخبره الكابتن ألفارادو ما يستطيع عن إيستبان والعم بيو. هؤلاء الذين هم الأكثر علمًا هم الأقل استعدادًا للمغامرة، سأوفر عليك تعميمات الأخ جونيبر. إنَّهم دائمًا معنا.

رأىٰ في نفس الحادث أنَّ الشرير زاره الدمار، والصالح استُدعي باكرًا إلىٰ الجنة. اعتقد أنَّه رأىٰ الثروة والغرور قد حُطما في درس عادل للعالم ورأىٰ التواضع يُتوَّج ويُكافأ من أجل تهذيب المدينة، لكن الأخ جونيبر لم يكن مقتنعًا بالاستنتاجات التي توصل لها. كان ممكنًا أنَّ الماركييزا دي مونتيمايور لم تكن غول جشع، ولا العم بيو غول انغماس في الملذات.

بعد الانتهاء وقع الكتاب تحت أعين بعض القضاة، وفجأة أُعلن أنَّ الكتاب كتاب هرطقة. أُمر بحرقه في الميدان مع صاحبه. استسلم الأخ جونيبر للقرار أنَّ الشيطان قد استدرجه ليبدأ مشروعًا في قمة الروعة في ليما. جلس في زنزانته في تلك الليلة الأخيرة يحاول أن يبحث عن حياته، عن ذلك النمط الذي لم يوفق في كشفه في الخمسة الآخرين. لم يتمرد. كان مستعدًا أن يُقدم حياته من أجل نقاء الكنيسة، لكنَّه تاقَ لسماع صوت في مكان ما يشهد له علىٰ أن نواياه -علىٰ الأقل- كانت في سبيل الإيمان. اعتقد أنَّه ليس هناك أحد يصدقه في العالم، لكن في صباح اليوم التالي وسط تلك الحشود، وتحت ضوء الشمس كان هناك الكثير ممن صدقوه؛ لأنه كان محبوبًا جدًّا. كان هناك وفد صغير من قرية بويرتو ونينا (الطيبة ٢، الصلاح ٥، الفائدة ١٠)، وآخرون وقفوا ووجوههم تعلوها الحيرة بينما أُلقي أخوهم الصغير إلىٰ ألسنة اللهب. حتىٰ حينها بقي هناك في قلبه عصب عنيد مصرٌ علىٰ أنَّه -علىٰ الأقل- لم يكن سانت فرانسيس ليتهمه (وإذ لم يجرؤ علىٰ مناداة اسم أعظم؛ لأنه يخطئ عادة في هذه الأمور) نادىٰ باسم سانت فرانسيس مرتين، وهو يسقط في ألسنة اللهب مبتسمًا ومات.



كان يوم القداس صحوًا ودافئًا. تدفق أهل ليما في الشوارع نحو الكاتدرائية وعيونهم السوداء شاخصة من الدهشة، ووقفوا ينظرون إلىٰ كومة المُخمل الأسود والفضي تعرق كبير الأساقفة علىٰ عرشه، وهو مغطىٰ بردائه الباهر، والذي كاد أن يكون خشبيًّا مسترقًا السمع من حين لآخر بأذن خبير سماع احتفالات رأي فيتوريا المعاكس. كان الكورال أعاد دراسة الصفحات التي ألفها -كوداعية للموسيقىٰ- توماس لويس من أجل صديقته وراعيته إمبراطورة النمسا، وكل ذلك الحزن والجمال، وتلك الواقعية الإسبانية وهي تُصفىٰ بمزاج إيطالي علت وسقطت في بحر مانتياس. جثا دون أندريس مريضًا ومتعبًا تحت المعلقات الملونة والمزينة بالريش في مكتبة.

علم أنَّ الجمهور كان يسترق النظر إليه بخبث متوقعين أن يلعب دور الأب الذي فقد ابنه الوحيد. تساءل هل البيريكول موجودة؟ لم يُجبر قبل ذلك علىٰ عدم التدخين كل هذه المدة. دخل الكابتن ألفارادو الميدان المشمش لوهلة نظر خلال حقول الشعر الأسود والدانتيل في أعلىٰ الشموع وحبال البخور. «كم هو خاطئ كم هو خيالي»، قالها واندفع خارجًا. نزل إلىٰ البحر وجلس علىٰ طرف قاربه يحدق في الماء الصافي أسفل منه قال: «سعيدون هم الغرقىٰ يا إيستبان!».

خلف العرض جلست الآبيس مع فتياتها في الليلة السابقة

نزعت من قبلها صنمًا وتركتها التجربة شاحبة اللون، لكن متماسكة تقبلت الحقيقة أنَّه لا يهم إذا ما استمر عملها أو لا ، يكفي العمل. كانت هي الممرضة التي ترعىٰ المرضىٰ الذين لا أمل لهم بالشفاء وكانت الراهبة التي تجدد المكتب أمام المذبح الذي لم يأتِ إليه أحد من العبَّاد.

لن يكون هناك بيبيتا لتكبر أعمالها، بل ستؤول الأمور إلىٰ كسل ولا مبالاة زميلاتها، بدا أنَّه من الكافي للسماء ولفترة من الزمن في بيرو أن ينمو حب حقيقي ثم يتلاشىٰ ببطء. أسندت جبهتها إلىٰ يدها متتبعة المنحىٰ الطويل والرقيق الذي يحمله صوت مغني السوبرانو في أدائه لابتهال الكايري: «كان لا بُدَّ لحبي أن يحتوي أكثر علىٰ هذا اللون يا بيبيتا، حياتي كلها كان لا بد لها أن تحتوي أكثر علىٰ هذه النوعية. لقد كنت مشغولة جدًّا». قالتها وهي ترثي لحالها، وانجرف عقلها نحو الصلاة.

بدأت كاميلا تحضر القداس. كان قلبها يمتلئ بالذعر والدهشة. كان هناك تعليق آخر من السماء. كانت هذه المرة الثالثة التي تسمع صوتًا يكلمها. الجدري ومرض هايمي وسقوط الجسر. أوه! لم تكن هذه الأشياء مصادفة. كانت تشعر بالخزي وكأن أحرفًا ظهرت علىٰ جبهتها. صدر أمر من القصر أنَّ الحاكم سيرسل ابنتيه للدراسة في مدرسة دير في إسبانيا. هذا صحيح. أصبحت وحيدة. جمعت بعض الأغراض وانطلقت نحو المدينة لحضور

القداس. لكنَّها ظلت تتخيل أنَّ الحشود ستندهش وتتعجب لِمَا حصل للعم بيو وابنها. تخيلت القداس الكبير في الكنيسة كأخدود سقط فيه الأحبة أو كعاصفة يوم الغضب، حيث يضيع الشخص بين ملايين الموتىٰ وتتلاشىٰ الملامح وتخبو الفوارق. بعد انقضاء أكثر من نصف الرحلة بقليل وعند كنيسة سان لويس راي المبنية من الطين تسللت إلىٰ الداخل، واتكأت علىٰ عمود لترتاح. جالت خلال ذاكرتها تبحث عن وجهي حبيبيها. انتظرت لتظهر بعض المشاعر همست لنفسها: «لكن لا أشعر بشيء، لا قلب لي، أنا امرأة مسكينة تافهة عديمة الفائدة هذا كل ما في الأمر، أنا محرومة، لا أملك قلبًا، انظر لن أحاول التفكير في شيء، دعني أسترح هنا».

ولو أنَّها توقفت قليلًا عندما اجتاحها ذلك الألم الفظيع الذي لا يوصف. الألم الذي لم يستطع التكلم ولو لمرة مع العم بيو ويخبره عن حبها وأن تبرز شجاعتها ولو لمرة لهايمي أثناء معاناته.

صرخت بحرقة: «لقد خذلت الجميع!». ثم بكت.

«أحَبُّوني، لكنِّي خذلتهم!».

عادت إلىٰ المزرعة وظلت لسنة يسيطر عليها اليأس. في يوم من الأيام سمعت أن الآبيس اللطيفة فقدت شخصين من أحبابها في نفس الحادث. وقعت عدة الخياطة من يدها إذن هي ستعرف

ستفسر «لكن ماذا ستقول عني؟ إنَّها حتىٰ لن تصدق أن شخصًا مثلي يمكن أن يحب ويفقد».

قررت كاميلا الذهاب إلىٰ ليما والنظر إلىٰ الآبيس من بُعد.

قالت لنفسها: «إذا أخبرني وجهها أنَّها لن تحتقرني سأتحدث إليها».

حامت كاميلا حول الدير ووقعت بكل تواضع في الحب مع الوجه العجوز الأليف مع أنه أخافها قليلًا في النهاية نادتها.

قالت: «يا أمي! أنا . . . أنا».

«هل أعرفك يا ابنتي؟».

«أنا الممثلة . . . أنا البيريكول».

«أوه! نعم؛ أوه لقد تمنيت أن أتعرف عليك منذ مدة طويلة، لكنَّهم أخبروني أنَّك لا ترغبين في رؤية أحد. أنت أيضًا -أعرف- فقدت في سقوط جسر سان!».

نهضت كاميلا وهي تترنح، ها هو ذا مرة أخرىٰ الألم، أيادي الموتىٰ الذين لم تستطع الوصول إليهم. ابيضت شفتاها. مال رأسها ليمسح ركبتي الآبيس: «يا أمي! ماذا أفعل؟ أنا وحدي تمامًا ليس لدي شيء في العالم. أحبهم ماذا أفعل؟».

نظرت إليها الآبيس مليًّا.

«ابنتي الجو حار هنا. دعينا ندخل إلىٰ الحديقة يمكنك أن ترتاحي هناك».

أشارت الآبيس إلىٰ بنت في الدير أن تحضر بعض الماء بينما ظلت تتكلم مع كاميلا.

«تمنيت لو أنِّي تعرفت عليك منذ زمن بعيد سيدتي. حتىٰ قبل الحادث تمنيت جدًّا أن أتعرف عليك. أخبروني إبان طقوس الأسرار المقدسة أنَّك كنت ممثلة عظيمة وجميلة جدًّا في مأدبة بلشاصر».

«أوه يا أمي! لا تقولي هذا . . . أنا مذنبة، لا تقولي هذا!».

«هاك اشربي يا ابنتي، لدينا حديقة جميلة، أليس كذلك؟! ستأتين لزيارتنا مرارًا وفي يوم ستلتقين الأخت هوانا مشرفة الحديقة، قبل دخولها للدين تقريبًا لم ترَ حديقة من قبل؛ لأنَّها كانت تعمل في المناجم أعلىٰ الجبال. الآن كل شيء ينبت تحت يدها، مرت سنة يا سيدتي علىٰ حادثتنا، فقدتُ اثنين كانوا أطفالي في دار الأيتام، لكنَّك خسرتِ طفلك الفعلي؟!».

«نعم يا أمي!».

«وصديق عظيم!».

«نعم يا أمي!».

«أخبريني».

ومن ثَمَّ وجد تيار إحباط كاميلا الطويل ووحدتها العنيدة

واليائسة منذ طفولتها راحة علىٰ ذلك الحِجْر المغبر وسط نوافير وزهور الأخت هوانا.

❁ ❁ ❁

لكن أين الكتب الكافية لتحوي الأحداث التي لم تكن لتحدث بدون سقوط الجسر؟

من عدد كهذا سأختار واحدًا إضافيًّا.

قالت أخت علىٰ باب مكتب الآبيس: «كونديسا دي أبوير ترغب في رؤيتك!».

قالت الآبيس واضعة قلمها: «حسنًا! من هي؟».

«لا أعرف لقد أتت للتو من إسبانيا!».

«أوه! إنه بعض المال -إينيز- بعض المال لبيتي وللمكفوفين! أسرعي وأدخليها ...».

دخلت الجميلة الطويلة وبالأحرىٰ المنهكة الغرفة. بدت دونا كلارا التي كانت عمومًا لبقة جدًّا لمرة مقيدة.

«هل أنتِ مشغولة أيتها الأم العزيزة؟ هل لي أن أتكلم معك قليلًا؟».

«أنا متفرغة تمامًا ابنتي. ستلتمسين العذر لذاكرة امرأة عجوز. هل أعرفك من قبل؟».

«أمي هي الماركيزا دي مونيمايور . . .».

شكَّت دونا كلارا أن الآبيس لم تكن معجبة بأمها، ولن تسمح للمرأة العجوز بالكلام حتىٰ تقوم هي بدفاع مستميت ومطول عن دونا ماريا. ظهر الإنهاك في أسلوبها. في النهاية أخبرتها الآبيس ببيتها وإيستيان وزيارة كاميلا.

«جميعنا فشلنا!».

يرغب الواحد أن يُعاقب. يرغب الواحد أن يمتثل لكل أشكال التعذيب، لكن هل تعرفين يا ابنتي أنه في الحب -ونادرًا ما أجرؤ علىٰ قولها هذه الكلمة- لكن في الحب أخطاؤنا نفسها لا تبدو أنها قادرة علىٰ الاستمرار طويلًا؟

أطلعت الكونديسا الآبيس علىٰ رسالة دونا ماريا الأخيرة، لم تجرؤ مادري ماريا ديل بيلار أن تقول بصوت عالٍ: كم كان اندهاشها عظيمًا بأنَّ كلمات كهذه (كلمات من وقت قرائتها والعالم كله يهمهمها مبتهجًا) يُمكنها أن تتفجر في قلب سيدة بيبيتا.

«الآن تعلَّمي لقد ملكت زمام نفسها».

«حان الوقت لتتعلمي أخيرًا أنَّك يمكنك أن تجدي الجلال في أي مكان». كانت الفرحة تملؤها كطفلة علىٰ هذا الدليل الجديد أنَّ الخصال التي تعيش من أجلها في كل مكان والعالم مستعد. «هل تسدين إليَّ معروفًا ابنتي؟ هلَّا سمحتِ لي بأن أُريك عملي؟».

غربت الشمس، لكن الآبيس قادت الطريق بمشكاة في ممر بعد ممر. رأت دونا كلارا المسن والصغير والأعمىٰ والمريض، لكن الأهم من ذلك نظرت إلىٰ المرأة العجوز المتعبة التي كانت تقود الطريق. كانت الآبيس تتوقف فجأة في إحدىٰ الممرات وتقول: «لا أستطيع منع نفسي عن التفكير بأنَّه هناك شيء يمكن فعله للصم والبكم! يبدو لي بأن شخصًا يُمكنه . . . يمكنه أن يدرس لغة من أجلهم، تعلمين هناك المئات والمئات في بيرو. هل تذكرين أي أحد في إسبانيا وجد لهم حلًّا؟ حسنًا في يوم ما سيفعلون . . .».

بعدها بقليل: «تعلمين! أظل أفكر بأن من الممكن فعل شيء للمجانين! أنا عجوز كما تعلمين، ولا أستطيع الذهاب إلىٰ حيث تُناقش هذه الأمور لكن أشاهدهم أحيانًا ويبدو لي . . . في إسبانيا الآن يُعاملون بلطف، أليس كذلك؟! يبدو لي أن هناك سرًا بخصوص الأمر، إنه مخفي عنا فقط، مستتر خلف الزاوية. عندما ترجعين إلىٰ إسبانيا إذا سمعت شيئًا سيساعدنا ستكتبين إليَّ إذا لم تكوني مشغولة أليس كذلك؟!».

بنهاية الأمر كانت دونا كلارا رأت حتىٰ المطبخ. قالت الآبيس: «الآن! هلَّا سمحتِ لي لا بد لي من الذهاب إلىٰ غرفة المرضىٰ الذين هم في حالة متأخرة لأقول لهم بعض الكلمات ليتفكروا فيها إذا لم يستطيعوا النوم. لن أطلب منك القدوم معي لأنَّك لست معتادة علىٰ هكذا . . . هكذا أصوات، وهذه الأمور

وعلاوة علىٰ ذلك؛ فأنا أتكلم معهم كما يتكلم الشخص مع الأطفال».

نظرت إليها بابتسامتها المتحفظة والحزينة. اختفت لوهلة لترجع مع إحدىٰ مساعداتها، مساعدة كما هو حال دونا كلارا كان لها علاقة بالجسر، وكانت ممثلة سابقًا.

قالت الآبيس: «هي ستتركني لبعض الأعمال في الجانب الآخر من المدينة، وبما أنني جمعتكما ببعضكما لا بُدَّ لي أن أترككما معًا؛ لأنَّ سمسار الدقيق لن ينتظرني أكثر من ذلك ونقاشنا سيكون طويلًا».

وقفت دونا كلارا علىٰ الباب أثناء ما كانت الآبيس تتكلم مع المرضىٰ وبجانبها المصباح علىٰ الأرض. وقفت مادري ماريا ديل بيلار مستندة إلىٰ عمود بيتها بينما رقد المرضىٰ في صفوف يحدقون في السقف محاولين كتم أنفاسهم في تلك الليلة. تكلمت عن كل هؤلاء الذين في الظلام (كانت تفكر في إيستبان وحده، كانت تفكر في بيبيتا وحدها) الذين لم يكن لديهم من يلجأون إليه، والذين بالنسبة لهم ربما كان العالم أكثر صعوبة بلا معنىٰ، وبالنسبة للذين رقدوا في أسرتهم شعروا أنَّهم محاطون بحائط بنته لهم الآبيس باطن هذا الحائط الدفء والنور وظاهره الظلام الذي لن يقايضوا به حتىٰ الارتياح من الألم أو الموت. لكن حتىٰ أثناء كلامها كانت أفكار أخرىٰ تجول في رأسها، كانت تفكر: حتىٰ الآن تقريبًا

لا أحد يتذكر إيستبان وبيبيتا غيري، وحدها كاميلا تتذكر عمها بيو وابنها ووحدها هذه المرأة تتذكر أمها. لكن قريبًا سنموت وكل ذكرىٰ هؤلاء الخمسة ستغادر الأرض ونحن بدورنا سنكون محبوبين لوهلة وسنُنسىٰ. لكن الحب سيكون كافيًا وكل نبضات الحب تلك ترجع إلىٰ الحب الذي صنعها. حتىٰ الذكرىٰ ليست ضرورية للحب. هناك أرض للأحياء وأرض للأموات والجسر هو الحب، الناجي والوحيد والمعنىٰ الوحيد.

عـن المؤلِّف

وُلِدَ ثُورنتون وايلدر في (١٧ أبريل ١٨٩٧م) في مدينة ماديسون في ولاية ويسكونسين في الولايات المتحدة الأمريكية. في ذلك الوقت كان والده هو رئيس تحرير (**مجلة ولاية ويسكونسين**)، لكن في (عام: ١٩٠٦م) عُيِّن كقنصل عام في هونغ كونغ. ظلَّ في هذا المنصب لثلاث سنوات قبل أن يُعيَّن في شانغهاي. **وبالتالي**: تلقَّىٰ ثورنتون بعضًا من تعليمه المبكر في الصين.

حضَّر ثورنتون للكلية في كاليفورنيا، حيث التحق بـ(كلية أوبيرلين) من (١٩١٥م) إلىٰ (١٩١٧م)، ومن ثَمَّ انتقل إلىٰ (جامعة يال) العريقة.

بعد اندلاع (الحرب العالمية الأولىٰ) قطع دراسته ليخدم كعريف في (سلاح المدفعية الساحلي) في (خليج ناراجانسيت) في (١٩١٨م). عاد إلىٰ الجامعة بعد الهدنة. تخرَّج وايلدر من (جامعة يال) في (عام: ١٩٢٠م).

كتب عنه ويليام ليون فيلبس: «أثناء دراسته كان طالبًا ذكيًّا،

ومُتعدِّدَ المواهب. ألَّف، وعزَف الموسيقىٰ، كتب النثر والشعر، وتميَّز في دراسته».

بعد مغادرة يال؛ قضىٰ سنة في دراسة الآثار في الأكاديمية الأمريكية للدراسات الكلاسيكية في روما. درس الفرنسية من (عام: ١٩٢١م) إلىٰ (عام: ١٩٢٨م) في (أكاديمية لورنسفيل). خلال هذه الفترة أكمل دراساته العُليا؛ ليحصل علىٰ ماجستير من (جامعة برينستون) في (عام: ١٩٢٦م).

خلال كل تلك المدة كان وايلدر يتدرَّب علىٰ الكتابة؛ مُختبِرًا الأسلوب القصصي وأساليبه، عازمًا علىٰ الكتابة للمتعة وليس للربح. وعندما صدرت أوَّل رواياته: «**الكابالا**» في (عام: ١٩٢٦م) أشاد كثيرٌ من النُّقَّاد بالأسلوب الأدبي الأنيق، لكن بالرغم من ذلك؛ فرواياته القصيرة تلك عن أفول طبقة من النخبة في روما كانت بعيدة جدًّا؛ ليحوز العمل علىٰ القبول لدىٰ الجمهور. في ذلك العام نفسه عرض مسرح المختبر الأمريكي مسرحيته الأولىٰ: «**وسيُسمع البوق**».

ثم في (عام: ١٩٢٧م)؛ قُبلت رواية: «**جسر سان لويس راي**» للنشر. طِبقًا لأحد القصص نُشِر الكتاب فقط؛ لأنَّ الناشرين اعتقدوا أنَّ عملًا بهذه الجودة لا بُدَّ أن يُطبع. لم يتوقَّعُوا نجاحها علىٰ الصعيد العام. لكن العامة تلقوا الرواية بحماس شديد!

نال الكتاب جائزة البوليتزر في (عام: ١٩٢٨م)، وفي كلِّ عام يشيد آلاف القراء بقصة الوايلدر عن الخمسة الذين قضوا نحبهم

علىٰ الجسر. لم تحتوِ رواية **«جسر سان لويس راي»** علىٰ أحداث صاخبة، فالرواية مقتضبة في العنف، ولم تستثمر علىٰ مشاهد مثيرة. لكن بالرغم من ذلك؛ فقضية الكتاب عالمية. كشأن الأخ جونيبر؛ فإنَّ جميع الناس عاجلًا أم آجلًا سيقفون أمام تحدي السؤال: **«إمَّا أنَّنا نعيش ونموت صدفة، أو أنَّنا نعيش ونموت حسب تقدير؟!»**.

وبالرغم من أنَّه لم يكن هدف وايلدر أو الأخ جونيبر الكشف عن الإجابة؛ كان هناك نمط في الرواية عن إشارات لمعاني العاطفة وزلَّات الشوق عند البشر. المعنىٰ إنساني بحتٌ؛ لأنَّه بالرغم من أنَّنا لن نكون أبدًا مُتيقِّنين من التدخل الإلهي في كل لحظة من لحظاتنا علىٰ الأرض؛ فإنَّ (جسر الحب) هو الذي يصل الناس ببعضهم، يعطي كرامة وغاية لأشد أنواع الحياة حقارة.

خلال العشر سنوات التي تلت؛ واصل ثورنتن وايلدر تجاربه للأساليب والتراكيب، خصوصًا في مسرحياته. جمعت مسرحياته القصيرة -والتي ظهر أثرها لاحقًا بطولها الكامل وبنضج أكبر-، ونُشرت في أجزاء مستقلة: **«الملاك الذي زعزع المياه»**، (١٩٢٨م)، و**«عشاء عيد الميلاد الطويل»**، (١٩٣١م)، و**«تاجر اليونكر»**، (١٩٣٨م) مسرحيته الوحيدة التي لم تنجح، التي أعاد كتابتها تحت عنوان: **«مدبر اللقاءات»**، التي عُرِضت لفترة طويلة علىٰ مسارح بروودواي بداية من شتاء (١٩٥٥م). في روايته الثالثة: **«نساء أندروس»**، (١٩٣٠م) جسَّدت الشخصية الرئيسة إيمان وايلدر

بالمجد بالرغم من الألم والحماقة: **«لقد عايشتُ أسوأ ما يُمكن لهذا العالم أن يفعله بي، لكنَّني مع ذلك أحمدُ العالم وجميع الأحياء . . .»**.

«الجنة هي وجهتي»، (١٩٣٥م) روايته الرابعة، والأولىٰ التي تجري أحداثها في أمريكا، قصَّت الرواية المغامرات الطريفة لجورج بوش الرحال، وبائع الكتب الإنجيلية. بالرغم من بساطة جورج وأخطاؤه المتلعثمة في عالم الحكماء حافظ علىٰ طيبة غريبة قوَّت إيمانه.

في مدة خمس سنوات نال وايلدر جائزة البوليتزر للمرة الثانية والثالثة لمسرحياته: **«مدينتنا»**، (١٩٣٨م)، و**«جلد أسناننا»**، (١٩٤٢م). خرجت المسرحيتان في العرض والبناء عن النهج التقليدي للدراما. تخلَّىٰ وايلدر عن المشاهد، واستخدم الممرات، وخشبة المسرح، واختزل أعوامًا وقرونًا إلىٰ ساعات عرض مسرحي. ولكن الذي خلد تلك هو التصوير غير العادي للتجربة الإنسانية علىٰ المسرح، وإيمان وايلدر الراسخ بقيمة التفاصيل الصغيرة في حياتنا اليومية، بالإضافة إلىٰ إيمانه بالنضال الإنساني المليء بالعثرات والطامح للانتصار. أركان (مدينة جروفر) في رواية: **«مدينتنا»** مثَّلت أي مجتمع مكوَّنٍ من أُناسٍ عاديين. حياة الناس العاديين فيها - المليئة بالأشياء السخيفة، والملل، والحب الذي يُكِنُّه الناس لبعضهم البعض -هي حياتنا نحن. ونداء إيميلي المؤلم عندما عادت من أرض الأموات- أنَّه علينا أن نتعلَّم فهم

الحياة بينما نحن نعيشها «كل دقيقة» - قد رسخ بعمق في أذهان الملايين من رواد المسرح. في المسرحية الهزلية والرائعة (جلد أسناننا) قام وايلدر بالتعبير عن التاريخ الإنساني من العصر الحجري إلىٰ عصرنا الحالي بطريقة مسرحية عبر عائلة أنتروبوس.

الشخصيات التي يؤلفها وايلدر هي شخصيات مُغفَّلة ومُلهمة وعمياء بشكل لا يُحتمل، وشُجاعة بالفطرة. ولكن في وسط كل الكوارث الموجودة علىٰ الأرض؛ فإنَّ الإنسان يستمر في نضاله المليء بالعثرات. قال جورج أنتروبوس في النهاية: **«كُلُّ ما أطلبه هو فرصة؛ لكي أبني عالمًا جديدًا، ودائمًا ما منحنا الرب ذلك، منحنا أصواتًا؛ لتُرشدنا، وذكرياتِ أخطائنا؛ لتُحذِّرنا»**.



جسر سان لويس راي

ثورنتن وايلدر روائي أمريكي وكاتب مسرحيات فاز بثلاث جوائز بوليتزر. قد نال تلك الجوائز على روايته هذه، وعلى مسرحيتين «مدينتنا» و«جلد أسناننا»، كذلك نال جائزة الرواية الوطنية على روايته «اليوم الثامن».

في هذه الرواية يحاول وايلدر أن يسلط الضوء على السؤال الأزلي هل المصير أمر عشوائي أم أنه مقدر وتتحكم به قوة عليا؟ والبحث عن تلك القوة العليا.

الرواية تحتوي على خمسة أجزاء، الجزء الأول يركز على انهيار الجسر في عام ١٧١٤م، وسقوط خمسة أشخاص ووفاتهم. الجزء الثاني والثالث والرابع يتمركزوا حول حياة الأشخاص الذين ماتوا، والبحث عن الحكمة من موتهم. أما الجزء الأخير فيركز على ما حدث بعد تلك الحادثة.

كتب جوناثان ياردلي في مجلة الواشنطن بوست تعليقًا على هذه الرواية؛ فقال: «لقد ذهلت تمامًا ليس فقط بطريقة وايلدر في معالجة الفكرة الرئيسية التي طرحها، ولكن كذلك بقوة وثراء أسلوبه النثري».

الثمن: ٧ دولارات
أو ما يعادلها


ISBN 978-977-85196-4-0
9 789778 519440

info@aalamaladab.com